شريف بن حبيلس

الجزائر الفرنسية

كما يراها احد الأهالي

ترجمة الأساتذة
عبد الله حمادي
فيصل الأحمر
وسيلة بوسيس

شريف بن حبيلس

الجزائر الفرنسية

كما يراها احد الأهالي

ترجمة الأساتذة:

عبد الله حمادي

فيصل الأحمر

وسيلة بوسيس

العنوان: الجزائر الفرنسية كما يراها أحد الأهالي

تأليف: شريف بن حبيلس

ترجمة: عبد الله حمادي – فيصل الأحمر – وسيلة بوسبيس

ردمك: 978-9961-928-35-6

الإيداع القانوني: 2012-5384

هذا الكتاب هدية من وزارة المجاهدين.
بمناسبة الذكرى الخمسين «50» لعيد الاستقلال

" شرف فرنسا ومصلحتها يجبراننا على الاعتراف بضرورة تكوين المغلوب"

" إن ضرورة المعرفة لا تستوفى أبدا ، فإذا تخلينا عن الأمر فإن الشعب المغزو سينهض بنفسه ، ثم يختلق تكوينا ، وتربية يتماشيان مع آماله ضد آمالنا "

" ريمون اينار "

العمل الفرنسي في الجزائر"

" لابد من العمل الدؤوب على زرع بذرة مزدوجة على هذه الأرض الإفريقية شقها الأول قوة فرنسا وشقها الثاني فكرها ، القوة التي تعوض نفسها تلقائيا والفكر الذي يقنع الغير، هذا هو واجب كل مسلم"

" أيها المسلمون، لا بد من الشروع في العمل حالا ، فلا مهرب من الاعتراف بأننا بلغنا الدرك الأسفل من أسفل أنواع الانحطاط.."

" بن موهوب"

" إن فرنسا تدعو بصدر رحب وعقل راجح كل من يعيش تحت سلطانها كي يساهم بما لديه من فكر وقوة ، فلا يجب أن يكون

الهم الوحيد هو المحافظة على ميراثنا الوطني المجيد وتطويره في إطار إقليمها فحسب وفي فضاء الوطن الفرنسي وكفى، بل يجب نقل هذا الميراث إلى الآخرين"

ج. آلود

"مسألة الأهالي في إفريقيا الشمالية"

التعليم والتكوين لدى أهالي الجزائر لهما نتيجة واحدة هي نفسها التي عرفها باقي العالم: التحضير لظهور العقل والتحلل على الأحقاد الدينية والتعصب"

"تعليم الأهالي، عصرنتهم، تحضيرهم، كل ذلك لا يستطيع أن يكون سوى عملية تقريب لهم منا"

الزمن Le temps

مقدمة

رسالة

صديقي العزيز، لكل رأيه اليوم في مسألة الأهالي وانطلاقا من هذا المبدأ توقعت أن لي رأيا أنا أيضا. ولم تكن على خطأ بل إن لدي آراء عدة لا رأيا واحدا فحسب، وقد يحدث لي أكثر من ذلك: أن أغير بعضا من هذه الآراء، لا من باب إزاحة الفكر حسب استيراتيجية ارنست رينان الذي يقول أننا إذا غيرنا رأينا باستمرار سنكون مرة واحدة على الأقل على صواب.

لكن من باب كون المسألة شديدة التعقيد، وزوايا النظر إليها عديدة، والحلول المقترحة متشابكة متداخلة لا ترتاح لوجه إلا ويباغتك وجه لا قبل لك به. فأنا انتهز فرصة عدم كوني مسؤولا عن إيجاد حلول بقوة لمنصبنا، فأشتغل على التفكير في الحلول الممكنة.

ثم إن رأيي في هذا المقام ليس عظيم الشأن، فرأيك هو المنتظر ظهوره إلى الضوء لا رأيي، وذلك عين العقل يا صديقي. فقد تحلّيت بما يجب من الكفاءة وتخلّيت عما يجب من الانفعالية ونظرت فأصبت، أنت الذي تكونت بعمق في مدارسنا ومعاهدنا، أنت الجزائري حتى النخاع، أراك أتيت هنا بخلاصة ملاحظات عميقة وأديت آراء خالية من التعصب ومن كل انفعال يفسد المنطق. فكيف يمكننا أن ننصت إليك؟

كيف لا نأخذ آراءك بعين الاعتبار في حين تكلمنا عن عالم تعرفه بقدر ما نظل بعيدين عنه ؟ ومن سيكشف عن خبايا زوايا هذا البيت خيرا مما تفعله أنت الساكن داخله في حين لا نرى نحن سوى جدرانه؟أية أحلام تسكن الفلاح، تحت برنوسه، وهو جالس أمام المقهى العربي على قارعة الطريق؟ وماذا عن ذلك البائع الذي ينتظر زبونا تقريبيا، دون أن يرغب في الأمر حقيقة ؟ وأية عيون وما طبيعتها، تلك التي ينظر بها صوب مهاراتنا الثقافية ؟ هل نبدو لهم أكثر إضرارا منا نفعا وأكثر جنونا منا عقلا؟ وحقد العدو الذي يملأهم، ترى هل يذهب بهم حد الرغبة في رؤيتنا نغادر هذه الأرض التي استثمرنا فيها جهودا كثيرة ؟

أنتم يا صديقي العزيز، وأمثالكم ممن رغبنا في إشراككم في مهمتنا، هم الوحيدين الذين يمكنهم أن يجيبوا هذه الأسئلة، بكل صراحة.

بواسطة ثقافتكم، التي تأتي لتدعم أصلكم، تنتمون لما يمكن أن نسميه بكل شرعية " نخبة الأهالي ". إنها تسمية شرعية كما تعلمون. وهي تسمية تصف بالضبط ما يتعارف عليه الجميع من صفات " النخبة "؛ والمقصود طبعا اتصافها بصفات أوربية معينة، التي هي مكونة من بعض المحامين، بعض الأطباء الأشراف، وجيش هام من الصحفيين المهرة. كدت أنسى أكثرهم جدارة بالذكر، المدرسين الابتدائيين الذين هم واعون بالدور الحاسم المنوط بهم وبالمسؤولية الكبيرة التي ألقتها فرنسا على عاتقهم حينما جعلتهم يشغلون المحل الذي هم يشغلونه دون أدنى مسألة. إنهم يضيفون إلى النقاش حماسا خاصا يقلل تارة أوار الاندفاع المولع، وتارة حموضة الأحقاد.

إن النخبة التي تنتمون إليها والتي تبدو لي عنصرا حاسما في الربط بين الشعبين متشبعة بالثقافة العربية دون أن تكون منغلقة دون التكوين الفرنسي، إنكم على معرفة حميمية بما أنجزه كتاب عصركم الذهبي، دون أن تجهلوا ما أنتجه مؤلفونا من الأعمال الممتازة، دراية بالكلمات والتعابير الجميلة التي اخترعها

أسلافكم، والأفكار النيرة التي خلفها أسلافنا، ستجد، للحديث عن فرنسا لإخوانك الأقل حظا، تلك الفصاحة التي يمكنها أن تسحر حتى الأكثر جهلا من بينهم، كما ستكون لك نصاعة الذهن ونقاء البصيرة التي لنا إذا جئتنا تشرح ما يعتمل بصدر هذا الأخير وإخوانه. لك كل التقدير على أنك وفقت في الجمع بين هاتين الخصلتين في كتابك.

ولكن الشكر كل الشكر لك وحدك، لأنك تمكنت من ذلك بفضل حسنات هي لك وحدك، خاصة بك لا بغيرك : المنطق حب الحقيقة، إنك يا صديقي العزيز "ذهن فذ"، ولا أقولها كما يقولها المتملقون والرسميون على أيامنا بل أقولها بلسان مفكري وكتاب القرن السابع عشر.

إنكم لتحكمون بعدل وإنصاف على منجزات الإدارة الفرنسية، سوف لن تبالغوا في تهويل ما يمكن أن ينقص هذه الإنجازات كي تكون على أحسن وجه، إنكم تصفون لنا المفعول الحسن لأمن لا يفتأ يتحسن مقارنة مع ما هو عليه في أماكن أخرى وما كان عليه قبل الحملة الفرنسية. ثم إنكم تسلطون الضوء – إلى جانب الصراعات التي لا بد منها أثناء تموقع الشعوب الفرنسية على الأراضي القبائلية – على محاسن هذا النمط الجديد من العمل الذي يؤديه عمال مختلفة ديانة بعضهم عن ديانة الآخر وأصل هؤلاء

عن أصل هؤلاء عن أصل أولئك، وعلى ما هو طيب في الجوار الحسن للكوخ وللمزرعة. إنكم تتحدثون لنا بصفتكم ملاحظا فذا، عن المدارس التي لا تنتظر الحكومة دائما كي تتكاثر وتزداد كثافة وعن اقتناع فلاح جبال الياجور بنجاعة التكوين، وهو اقتناع لا اختلاف بينه وبين ذاك المغروس في ذهن الفلاح الفرنسي، ثم إنكم تشرحون جيدا ميكانيزمات البلديات المختلطة مصورين أمام أعيننا صورة الإداري، هذا الإله المهيب مع طيبة، العجيب مع حكمة، الخفي مع ظهور في كل مكان، وفي الوقت نفسه. ثم ترصدون دون تحيز ترتيبا للأعوان من الأهالي، هؤلاء "القياد" الذين يحملون نكهة زمان. وإذا كان العديد منهم ناجعا واعيا صاحي الضمير فإن عددا لا بأس به منهم ليسوا سوى ورثة الإدارة التركية بكل ما فيها من تعصب ومحسوبية.

وبعد أن تقلبوا لنا البرنوس العنابي الشريف كي نرى ما بداخله، تفضحون أيضا البرنوس الترابي بلطافة وخفة محدثين إيانا عن عامة الناس، من خلال رسم بورتريه لمحمد مبارك "البروليتاري" ضحية نظام الخماسين الذي أكل عليه الدهر وشرب، وضحية طيبته التي لا تعمل للغد حسابا، وضحية المقرضين الذين ينهشون لحمه تحت عيون مفتي المسلمين.

ثم تأتي صورة المتمدن الذي يعبر أمامنا؛ البورجوازي الغيور على إنسانية العتيقة والعدو التلقائي لكل تطور. ثم ابنه الشاب الجميل المتكبر الجاهل والأحمق الذي لا يجرجر حين يمشي في الشوارع سوى رضاه عن نفسه وهو لا يفعل شيئا سوى الاعتناء بلباسه الأنيق.

إن نظرتك التي يزيدها عمقا تكوينك الأوروبي ونظرتك المتعاطفة، لتتفقد وتتفحص المجتمع المسلم المحيط بك فتتكشف عن أعضاء ميتة وقوى معطلة.

أخيرا، ولكي تحدثنا عن الشباب الحي الذي يطمح لبناء المدينة الجزائرية المستقبلية تجد نبرة صريحة تنسينا تماما النوايا السيئة المبيتة التي عودنا عليها جدلهم.

بفضلك ينتعد شبح الأمية الإسلامية - إن كانت موجودة- فتنشئ تحلم بغد أفضل. فنرى يوما مضيئا يحمل للبعض نظرة أكثر انتباها وأكثر حنانا صوب حاجات الآخرين، ولهؤلاء يحمل قلقا أقل من المظالم التي تعودوا أن يلهجوا بها ومن المخاوف التي تسكنهم على غدهم، وتحمل لهؤلاء ولأولئك ثقة متبادلة أكبر، والإرادة التي لا بد أن تمتلئ بها كي تزودنا بـ " السلام على الأرض"

جورج مارسيه

مدير مدرسة تلمسان

الجزء الأول

تمهيد

كان الهدف هو تهدئة الأوضاع والمصالحة بين كل الأطراف حينما شرع في المحاضرات التي احتضنتها نادي "صالح باي" بقسنطينة، والتي ألقاها، كما سيتضح، السيد "بن موهوب"، المفتي المالكي ومدرس الفلسفة الإسلامية بمدرسة قسنطينة "التي يعد جوهرتها اللماعة.

إن الفكرة العامة التي يمكن استخراجها من هذه المحاضرات بسيطة، رغم تعدد تقديمها في كل مرة، وتنوع أدوات أدائها. يمكننا أن نخلصها في هذه الكلمات: الحرب ضد الجهل، الحرب ضد التعصب.

في هذه المعركة التي قادها، والتي كان لنا حظ المساهمة فيها بين الحين والآخر كان السلاح الأقوى والأنجع هو: الفصاحة، فصاحة تختزل المسافة بين القلب والقلب.

لا بد من الإقرار بأن برنامج بن موهوب بسيط جدا، بسيط حد التميز. لا بد من الإقرار أيضا بأنه ليس ممن يعالجون الأمور الحرجة بذلك التفاؤل الذي يملأ أروقة مجالسنا الجزائرية. ويمكن تصديقي هنا، لأنني أنطلق عن دراية وسابق معرفة. كما أنه بعيدا جدا عمن لا يلهج سوى بالظلم وغياب العدالة والتفاوت في الأرباح، ويدعو لسياسة العنف.

إن آراءه تشق طرقها بين هذين القطبين المتطرفين. لقد تعلم من دروس التاريخ أن تربية شعب ليست أمرا يتم بين عشية وضحاها، وأن الثورة الفكرية والاجتماعية لأمة " بلغت أدنى وأحط درجات التقهقر"[10] عمل يتطلب جهود قرون عديدة.

محاربة الجهل بواسطة المدرسة، وترك الباقي لمفعول الزمن، هذا هو الرأي الحصيف لهذا الرجل الذي ضحى – إلى الآن – بنصف عمره من أجل تحرير إخوانه.

صحيح أن هذا البرنامج برنامج جامع. وضعية الأهالي، المحاكم الرادعة، الإنعاش المادي للأهالي، مجتمعات الوقاية، والقرض الزراعي، البنوك الشعبية، والنقابات المهنية، وغير ذلك،

---

[10] بن موهوب.

كل هذا سيكون محلولا، وفي أقرب الآجال، بمجرد إنشاء مدارس!

إن حدة مشكل الجزائر الذي تطرحه العلاقات بين الشعوب المتعاملة والمختلطة في المستوطنة، لن تختفي بتطبيق هذه التدابير، بالتأكيد، ولكنها ستقل وينقص أوارها.

كثيرة هي المشاكل المحلولة، وكثيرة هي الحواجز والعوائق المذللة من خلال تطبيق هذا البرنامج المدرسي الشاسع، والجدير باستنهاض كل الهمم، وتحريك كل الإرادات وكل الطاقات.

وفي بوتقة الآراء والأفكار، ووسط ضجيج الأصوات المتجاورة والمتناوشة حول مسألة الأهالي، حبذا لو أن بعضا من البرلمانيين، الكتاب، الناشرين ورجال الأعمال سواء أكانوا من مناصري الأهالي أو من معارضيهم، يعودون صوب عملية التقريب بين العنصرين، كتأسيس مدارس جديدة، ذلك العمل الذي يزن أكثر بكثير من كل الخطب الملقاة.

وقبل كل شيء، يبدو لي شخصيا، أنه قد كتب الكثير، لا أن المشكل المطروح لا يستحق كل هذه الأهمية، بالعكس، فمسألة الأهالي مسألة حياة أو موت بالنسبة للإعمار وللغلبة

الفرنسية في شمال إفريقيا، أقول: إن كتاب هؤلاء وأولئك على حد سواء، يطبعها التحيز والعنف والكراهية.

إن الحكمة الفرنسية القديمة تقول لنا: إن صدام الأفكار جانب للنور، هنالك جزء كبير من الحقيقة هنا، ولكنني أعتقد أن يبعث الشرارة لا يمكن أن تكون على أيدي الصم و العمي.

في كل هذا الجدل الذي يستمر منذ أربع سنوات، بين الذين يدافعون عن تواجد وغلبة فرنسا، وبين الجزائريين المدافعين عن إخوانهم المسلمين المفترض كونهم مضطهدين - أعتقد أنه كان هنالك الكثير من التعصب، وكثير من الحماس المحلي، و كذلك من النوايا السيئة، فتارة يتم وصف معمر خبيث، يهتم بالجرائد أكثر من اهتمامه بالأرض، أو ناشر عديم الضمير، أو موظف حقير أو مخل بالواجب ، أو مسيء للنظام، وغد، مضاد للفرنسيين، إسلامي مشبوه أو ثوري تركي ، هذه التسمية التي راحت حد الجنون، وتارة يتم وصف مطربش ثائر ما يتشدق بكون الأهالي ليسو سوى قطيع كبير يسيره إداريو البلديات المختلطة بالسياط، صوب ضياعه الأكيد.

الأعجب من هذا، أن تهم الجماعتين تجد دائما مصداقية، ليس فقط على الطرف الآخر من البحر، بل هنا بالذات، أين

يمكننا أن نتأكد من صدق ما يقال، ودقة ما يحدث. يبدو أن الجماعتين، تحت غطاء الانحياز الأصم أصبحتا تستعملان عينيها لكي لا ترويا شيئا وأذنيها لكي لا تسمعا صوتا. فمن الواضح إذن، أن هنالك، في هذه الآراء، حماسا أعنف بكثير من إمكانية منح فرصة التمحيص حتى للمعنيين بالأمر، بل حتى للأذهان العادلة المستقيمة لذلك، هنا أكثر مما هو عليه الأمر في أي مكان آخر، فإنه خطير جدا اتباع هؤلاء السياسيين في مهاوي نقاشاتهم المتناقضة، إذا كنا نريد أن نفحص النظر لإدراك الحقيقة العارية ستفيد الجميع معرفتها في الواقع الأمر.

نحن الملاحظين المستقلين، أبناء الأهالي، الذين عشنا وسط الأهالي سواء تحت أكواخ جبال البابور العتيقة أو تحت سقوف المتمدن " الحضري "، نعتقد أن هناك فائدة أكيدة في إصدار حكم عام حول الإنجاز الفرنسي والإدارة التي اضطلعت بالمهمة العسيرة التي هي تكوين وتعليم إخواننا وكذلك حول وضعهم المادي والفكري هم بالذات كما هو الحال في السنة المباركة 1913.

هذا الحكم هو الاعتراف المتواضع لأحد الأهالي الجزائريين الشباب، والذي تمت تربيته على مدرجات مدرسة فرنسية، شاب

يحب النعت الجميل "فرنسي" الذي تلحقه به الإدارة الفرنسية، شاب يعتقد جازما أن فرنسا هي التي قادته صوب طريق "الحق"، فلا هو يريد أن يكون منتقدا مشنعا لمن أحسن اليه، كما هي حال بعض ناكري الجميل، ولا هو يريد أن يكون متملق أقوياء المرحلة. النية هي فقط، التعبير عن إحساسه بالجميل. فهو يريد أن يضع لبنته على البناء الضخم الذي تواصل الجمهورية الثالثة – بشيء من حماس المتسرع أحيانا، وكثير من النجاعة في أكثر الأحيان – تشييده على الأراضي الجزائرية.

سواء أخاطئة، متسرعة، ذات ثغرات، أم ليست كذلك، ستكون هذه الشهادة حاملة للاستحقاق الذي لا ريب فيه الذي نشيد به بصوت عال : الحقيقة والصراحة.

الفصل الأول

" الأمــن "

بادئا ذي بدء، ما هي عملية المصالحة بين الأفراد التي شرع فيها؟ ليست عملية بل عمليات، وهي عديدة ومتنوعة. وربما تكون أكثرهن ذكرا من قبل الجميع، جاهلهم وعالمهم، غنيهم وفقيرهم، كلهم يمدحون الإنجازات في الجانب الأمني.

منذ أجيال كثيرة والجزائر عش حقيقي للأشرار وقطاع الطرق والقراصنة، ولم نعرف استتباب الأمن إلا منذ أن صارت أرضا فرنسية.

قديما، كان السطو والعدوان والمعارك الزاد اليومي لكل القبائل ولكل المقاطعات، باشاغا الحضنة على خلاف مع باشاغا المجانة، وهذا الأخير بينه وبين جاره في الأوراس حزازات، ومن القالة إلى بني صاف لا يوجد مقاطعتان حاكما هما على وئام ووفاق.

الفوضى، الغموض، الاضطراب: تلك هي حال المسلمين الفعلية في شمال لإفريقيا وذلك وضعهم الاجتماعي في ظل وصاية الحكومة التركية المجرمة لكي لا نذكر سوى آخر حكومة عرفتنا هذه الأراضي.

إن التاريخ يخبرنا بالكثير في هذا الصدد. فلسنا بحاجة، في الحقيقة، لإجراء دراسات معمقة كي نرى أن التجارة والزراعة كانتا منعدمتين. فلماذا يزرع الفلاح أرضه إذا كان مصير الغلة السرقة والنهب؟ ولماذا نتاجر إذا كانت الأموال المحصلة تؤول آجلا أو عاجلا إلى خزائن الحكم؟ ويجب بالموازاة أن نذكر بأن هذه الحالة قد استمرت مطولا حتى بعد دخول الفرنسيين إلى الجزائر، إما بسبب العجز على مستوى أدوات الردع والحماية، وإما بسبب سياقات دبلوماسية معينة. بوعكاز بن عاشور حاكم فرجيوة، مثلا، واصل – حتى يوم تهجيره _ ممارسة حق القتل على رعاياه. فكان يحدث أن يرمي بمعينيه في واد بوصلاح لمجرد غيابهم عن الاجتماع مثلا.

من يا ترى سيكتب التاريخ الكئيب لأولئك المساكين الذي ذبحوا دون أدنى محاكمة لا لسبب سوى أنهم – مثلا- أعجبوا إحدى "حوريات" قبيلة الطاغية. إنه ليبدو لعابر بعض المناطق أن صوت أولئك الضحايا المساكين مختلط بشكل ما بخرير المياه.

القصص تنقل عن بوعكاز أنه ذات يوم – وقد أخذ مكان الجلاد – أراد قتل أحد فلاحي بني مجلد متهما إياه بالعصيان. استحضره كالعادة طليق اليدين وحدث أنه ساعة رميه في الهاوية تشبث بأثواب الحاكم فكاد يجرجره معه في الهاوية لولا أن أسعفه رجاله وأعوانه، فما كان منه نتيجة لذلك إلا أن قرر رسميا أن يوضع الضحية وسط كيس مغلق قبل تقديمها لتطبيق الحكم بالإعدام.

إن من عايشوا فترة ذلك الوحش الذي زرع الرعب في قلوب سكان تلك المنطقة التي تعد من أخصب المناطق في ضواحي قسنطينة، لازالوا يرتعشون لمجرد ذكر اسمه. سنجد كثيرا من شهود العيان ممن يحدثوننا عن فترة سابقة – ويحضرني هنا أحد الأجداد بلغت به السنين سبعا وتسعين، كان قديما من الخدم – فترة كان يمكن للمرء فيها أن يسافر بمائة من البهائم محملة كلها من ميلة إلى سطيف، ويمكنه ليلا أن يقبع في أي مكان وسط الحقول في انتظار الفجر لمواصلة السير. سنجد من يشهد بذلك، وشهادته حقيقية، إلا أن هذا لا يمنع كون بوعكاز أكبر لصوص المملكة وأخطرهم.

أيحق للأهالي – نتيجة لذلك – أن ينظروا بعين الحسرة صوب تلك الفترة؟ لا، طبعا!! وحتى هؤلاء الذين سيقولون دفاعا عن إخوتهم في الدين أن المقارنة بين وضعنا قبل 1830 وبعدها، تجعلنا نستنتج تفوق الدولة القديمة، هؤلاء ليسوا سوى مزيفين للحقائق وكذابين لا يمكن تصديق آرائهم – وبالموازاة فإن تعداد حوادث السرقة والسطو وباقي الجرائم، ورصد كل شاردة وواردة من الحوادث، ثم إلحاق مسؤولية ذلك بإخواننا البرلمانيين ذوي الميل صوب الأهالي، كل هذا لن يكون أمرا خاليا من شر كامن ونية سيئة مبيتة وحكم مسبق غير عادل. فآل بونو Bonnot وجماعية غارنيي Garnier ليسوا من أهالي الجزائر. ومن هذه الزاوية بالذات، لا يوجد فضل لأحد على الآخر، الفرنسيون والإيطاليون من جهة والأتراك من جهة أخرى يقفون في هذا الموقف على قدم المساواة.

من أي علو شئنا ننظر إليه، يبدو المجتمع البشري حاويا للعناصر الفاسدة دائما، أما فيما عدا هذا الاعتبار فإن أية حكومة تعجز عن ضمان الأمن والسلامة لرعاياها تصبح محل انتقاد منطقي من قبل أي ذهن واع عادل. هذا الأمر لا نقاش فيه.

إن الذين يكثرون اللجاجة وهم يعددون الجرائم ويحصون الحوادث والجنح معتقدين أنهم يخدمون مصالح فرنسا، لا يفعلون سوى الإضرار بها في الحقيقة.

من حسن حظهم وحسن حظنا أن الحقيقة غير ما يقولون. إنهم يضخمون هذه الحوادث بلم شملها وتعدادها في الوقت نفسه على القائمة نفسها. أما الحقيقة فهي أن عدد الجرائم يزول إلى النقصان، وأن الجنح تتضاءل إلى القلة لا الكثرة، لذلك نقول أن استتباب الأمن يظل أحد أهم الإنجازات الفرنسية على هذه الأرض.

بالإضافة إلى الامتيازات الاقتصادية التي جلبها الاستقرار الأمني، فإن الأهالي أصبحوا يعون بسبب هذا الأخير عظمة الدولة الفرنسية، سبب من أسباب الإعجاب بالنسبة إليهم، وهو تمهيد جيد لخلق عاطفة الحب بملامح الإعجاب، حب هذه التي منحتهم وضعا آمنا مستقرا، لذلك فخدمة الأمن والعمل على استتباب الأوضاع واستقرارها هو عمل على إدماج إخواننا وتكييفهم واستيعابهم.

والواجب الآن أن نسأل أنفسنا من هم هؤلاء الذين توكل إليهم مهمة خدمة الأمن والحفاظ عليه والسهر على استقراره؟

الفرنسيون والأهالي مسئولون معا عن هذا الأمر، ولكن الإدارة الفرنسية تبقى عرضة للانتقاد في هذه النقطة، لأن العمل نفسه يجازى للأسف الشديد بأجرين مختلفتين ...

وانها لمظلمة آن الأوان كي نصححها. خذوا مثلا الشرطة البلدية لأية مدينة جزائرية، ولننظر عن كثب إلى ما يتقاضاه الموظفون المنتمون إليها، محمد بن علي الموظف المتحمس الذي يحبه ويحترمه رؤساؤه ومسؤولوه، ويثقون به ثقة كبيرة تفوق ما يتمتع به زميله الفرنسي فرانسوا أليبرني، ومع ذلك فالميزان المالي يميل جهة هذا الأخير. إن التفضيل الذي يتمتع به الأهالي جاء بفضل العمل الدؤوب، في حين الأفضلية المالية التي للفرنسي على صاحبه لا شيء يبررها، والوضع نفسه يعانيه أعوان الدرك من الأهالي وكذلك الموظفون الإداريون.

لماذا هذا الظلم؟ الإجابة يملكها مواطنو هذا البلد في الحقيقة.

المعمر العامل سيقول طبعا أن المؤسسة بحاجة إلى تعديل، سيملي عليه تفكيره المنطقي بأن ما كان صحيحا بالأمس لم يعد كذلك اليوم، سيقول أنه على المؤسسة أن تعبر عن امتنانها تجاه خدمها الأوفياء الذين لا غنى لنا اليوم عنهم.

أما المعمر المسّيس فسيقول إن الموظف الساكن الأصلي يعيش حياة بسيطة وإن حاجاته ليست كحاجات الموظف الأوروبي، وبعد سويعة سيكون النقاش قد أتم دورته الاعتيادية بين المبررات المكرورة المعادة. سنقول لمن يبرر التفاوت بنمطي معيشة مختلفين: الأجور محكومة بالجهود المبذولة، والتفاوت في الضرائب مقبول لسبب بسيط هو أن الجهود الفرنسية على هذه الأرض من طرق ومدارس، وسكك حديدية، وقصور بنتها، من أسواق، ونافورات، ... كل هذا له ثمن، لذلك لا ينكر الساكن الأصلي أن ظروف العيش الأفضل هذه تحتاج إلى تضحيات منه لأنه لفائدته هو بالدرجة الأولى.

التفاوت في الحقوق، لا أحد يقبله، لا نحن ولا حتى أنتم، على كل حال سوف نعود لمعالجة هذه النقطة. أما العمل نفسه فيقتضي الأجر نفسه، هذا هو المبدأ الأساسي الذي على الإدارة أن تنطلق منه وتعمل به وهي تحدد أجور عمالها.

وقد تم تطبيق مبدأ المساواة هذا في بعض الإدارات بنتائج جيدة محصلة ونجاح لا ريب فيه. الرجال لا يتم تسييرهم إلا من زاوية مصالحهم الخاصة، قد نتسرع ونحن نجزم أنه منذ مدة، يُلاحظ تفضيل واضح للعمال من الأهالي وتغيير أكيد لوجهة النظر صوبهم، إنه خير دليل على نوايا الإدارة الحسنة ونيتها في مواجهة أخطائها

لذلك فنحن حينما نسمع عن التعسف الإداري والانحراف بها، والخروق التي تشاهد هنا وهناك، نعزي أنفسنا بهذا التحول الذي يلاحظ بالموازاة مع مجتمع هذا البلد، وبما قطع من المراحل، وما هو منتظر من المراحل المقبلة الزاهرة.

الفصل الثاني

"التعميـر"

إنجاز آخر من إنجازات المصالحة التي نحن بصددها، والتي لا يستهان بها هو التعمير، ففي الحقول تحت أمطار الشتاء وبرده القارص، أو تحت سياط الحر الصيفي، يتم عموما الاحتكاك بين المعمرين والأهالي ويتم التعايش السلمي، ولا يوجد مكان آخر يتم التعايش فيه بمثل هذا الشكل ولا بمثل هذه الخصوبة.

في هذا الأمر لا توجد نقاشات مشعبة، طوال النهار تتضافر الجهود بكل أخوة من أجل تقليب وجه الأرض، وفي المساء، متعبين ومرهقين، يتفرق الرجال كل صوب ناحيته بعد تبادل سلام على النمط العربي، وبعد مصافحة قوية تليق بالفلاحين، لن تجد مكانا آخر يذيب الحواجز بين هؤلاء وأولئك أكثر من هذا المكان، فالمصلحة المشتركة والمصير المتقاسم يجعلان تقاليد العمل وسيرته أهم من كل اعتبارات أخرى.

كل شيء مشترك بين هؤلاء الرجال الذين وضع القدر بعضهم الى جانب بعض، بمجرد احتباس المطر مثلا، تجد هذه الوجوه التي خالف بينها الزمن والمكان، والتي جعل مصير السلاح بعضهم قبالة

بعض، تجدها مكفهرة الاكفهرار نفسه ،... وبمجرد هزيم الرعد – أيام الحصاد – تجد الوجوه التي يختفي بعضها تحت الخوذة وبعضها تحت "الشاش"، ملتفتا بعضها إلى بعض والقلق ينهشها ويجعلها تلتفت جميعا صوب السماء، بعيون مفتوحة كلها تتساءل طيلة ساعات الهزيم عن كل هذه الشناعة.

إنها الانشغالات نفسها تجمع الطرفين، فسعادة هذا أو شقاؤه تصنعها أفراح الآخر أو أحزانه. أين يا ترى يمكننا أن نجد مصالحة أكبر من هذه وأكثر حميمية؟ إلى من سيؤول المعمر دون الأهالي؟ كيف يمكن أن يفعل وماذا يمكنه أن يفعل دون هذا الخزان الهائل من اليد العاملة؟

أحد معمري منطقة سطيف – وهي من أخصب مناطق البلاد – قال لأحد عمال الإدارة الهامين الذي أرسل للتحقيق حول أسباب الهجرة المكثفة صوب سوريا: " إذا لم تجدوا حلا جادا لمسألة الأهالي وهجرتهم فما علينا سوى جمع أمتعتنا والرجوع من حيث أتينا ". إنه اعتراف صريح وقوي يسكت كل متقول تخول له نفسه نكران فضل الأهالي في دفع عجلة التنمية الاقتصادية.

من جهة أخرى، من دفع هؤلاء إلى العمل، وغير ذهنيتهم في العمل، إنه هذا المعمر الآتي من وراء البحار لا يحمل معه إلا بنيته

القوية في أغلب الأحيان، هذا المغامر الذي جاء وتمركز وسط أناس لا يعرف لغتهم ولا ذهنيتهم، ولا عاداتهم، والذي واجه ألف عسر وعسر، وحرم نفسه من كثير من الأشياء كي يشكل له خلية حيوية، وبيتا على هذه الأرض التي انتهى به الأمر إلى احتضانها كأنها وطن "ثان"؟

من الذي علمنا طرق الزراعة الجديدة؟ من أحدث الارتفاع الذي نراه في أجور عمال الحقول إن لم يكن المعمر؟

من يجرؤ على نكران فضل هذه الشراكة ؟

" لا تكون أمة جديرة بالأرض والطبيعة التي ورثتها إلا إذا عملت بجهودها وفنونها على جعلها أفضل مما كانت عليه ". كما قال راسكن.

لهذا نرى فرنسا جديرة بالتراب الجزائري بفضل أعمال أبنائها وإنجازاتهم، تأملوا هذه الأعمال وستجدون كل شيء يتحدث عن تحول مستمر، الريف الذي كان بوارا صار يزدان بالمحاصيل الخصبة، والجبال تركت جدبها لصالح خضرة جديدة وجميلة، والمناطق الخالية، ثم الهاويات التي كانت مستعصية تماما على العابرين، تراها اليوم تربط بينها الجسور المتينة، وهذه المساحات لم تكن فيها سوى النباتات البرية القديمة، والتي لا تجد فيها سوى مزيج

كثيف من العليق والعناب البري، تحولت اليوم الى قرى جميلة يشرفها اسم احد علماء فرنسا ويزينها شجر البرتقال واليوسفي بثماره المذهبة والصخور التي لم تكن تعرف شيئا سوى هجمات الأمواج البحرية الغاضبة، أصبحت اليوم موانئ واسعة ومراسي غنية تحتضن الجوار الطيب للخيرات والكنوز التي لا تفرق أهي ملك لساكن أصلي أم لمعمر

في خطبة بليغة لا تنسى قال السيد قوادري*: " هنالك مثال لا نمل ضربه ولا تكرار ضربه، لأنه دليل على الصمود الفرنسي، أقصد بوفاريك، التي تقع في أتعس المواقع من " المتيجة "، في نقطة التقاطع بين المياه الهابطة من الأطلس والمياه الصاعدة من ساحل الجزائر، بوفاريك، لم تكن في 1830 سوى مستنقع وسخ، أنشئت فيها مدينة، تحولت مع الوقت إلى مستنقع للموت.

في عام 1841، أخذت الحمى 106 معمرا من مجموع 450 معمرا تمركزوا هنالك. عام 1842، أخذت 42 من 300، وتجدد سكان المنطقة عدة مرات، إلا أنه في عام 1856 بدأ معدل الإزدياد يفوق معدل الوفيات، وبعد عدة سنوات أخرى، عام 1870 صارت بوفاريك تذكر كأحد أنظف الأماكن في الجزائر، ..أما اليوم، فالمدينة وما جاورها

* ألقيت الخطبة في ثانوية قسنطينة بمناسبة توزيع الجوائز سنة 1907.

تكاد تكون مخفية تماما تحت أشجار الأوكاليبتوس الضخمة، وأوراق الدلب الظليلة، والسراخس السوداء، والجوز الباسق، والصفصاف الكثيف الرشيق".

لا شك أن أعمال الصرف الصحي والتطهير هذه قد شغلت اليد العاملة من الأهالي شهورا وشهورا. ها هو ذا مثال الجهود المتضافرة التي نتحدث عنها، أليس هذا الإنجاز مثالا جديرا بالتذكير؟ أليست هذه الإنجازات هي التي ترسخ الصلات الأقوى والأكثر حميمية بين الطرفين؟

إذا ما نظر إليها من هذه الزاوية، تصير أعمال التعمير في رأينا أفضل أعمال المصالحة ويصير تعداد فضائلها غير ممكن لكثرتها، إننا نجتهد كثيرا كي نقول ما عمه الجميع وما يدركه كل ذي منطق سليم وعقل حف. لقد جلبت – هنا – الثراء للبعض والظروف الحسنة للجميع، وخاصة إذا نظرنا من الجانب الصحي.

وربما يكون أهم النتائج هو جعل الأهالي يفكرون في وضعيتهم ويعيدون جمع حساباتهم ليخرجوا من حالة الشلل التام الملم بهم، إن استعمال الآلات الزراعية غدا أكثر انتشارا، فهناك أكثر من 30000 محراث تجوب أراضي العرب والقبائل، وإذا كانت هذه الأخيرة قد خلقت حاجات أكثر فإن المداخيل والأجور قد تزايدت تزايدا هاما، ثم

إن الفلاح، ويفضل جوار المعمر الفرنسي، قد أصبح يلبس لباسا أفضل مما هو تعود عليه من "قدوار" و "قاعة" وما شابه ذلك، والاستهلاك العام للموارد الغذائية التي ينتجها المعمر لا يفتأ يتزايد منبئا بتغذية أكثر صحية، منذ ثلاثين سنة فقط لم نكن نجد القهوة والسكر والصابون إلا لدى قلة من العائلات ميسورة الحال. أما اليوم فإننا لم نجدها تحت خيمة الرحالة وفي كوخ الفلاح.

تحول كامل في أدوات الفلاحة، ازدياد ملموس لقطعان الغنم والمواشي، ارتفاع محسوس في الدخل الفردي للفلاح، تطهير أراضي الزراعة وتحسين عطائها، وبكلمة واحدة: توسيع دائرة الثروة المحلية.

من جهة أخرى نجد أن التعمير قد غير العقليات بأن فرض أسئلة على الأهالي تدعو إلى البحث في أشياء لم تكن مركزا لأي تساؤل من قبل: "إن شبكة القرى الأوروبية التي لا تفتأ تزداد عددا، تزرع في أذهان الأهالي الاقتناع القوي بأن التعمير والتواجد الأوروبي في بلادهم قدر لا مفر منه، وشيء نهائي لا مرجع منه، إنه مشهد يدفعهم إلى الإيمان بقبول تواجدنا على أرضهم كقدر محتوم، إنهم بذلك يلقنون بأنه لا مستقبل أمامهم إلا بين أحضان المجتمع الذي يرونه يتشكل

حواليهم، ويجعلهم يتحولون إلى أتباع طيعين متى تمكنا من إرضاء رغباتهم وتطلعاتهم"[1]

لا شيء أصح من كلمات هذا الفرنسي المحق العادل، وربما وجب أن أضيف بأن شعور الأهالي هذا لا يمازجه أي أسف على هذا المال، بالعكس، إنه اقتناع يملؤه الشعور بالاحترام والإكبار وحتى الإعجاب.

هذا عن الآثار النفسية لعملية التعمير وآثارها الخلقية.

إلا أن هذا النجاح لا يمنع توجيه لوم، بل لوم حاد وخطير، وأهم ما تلام عليه الحركة هضم مصالح الملاك الصغار لفائدة ملاك كبار وأقوياء، وهي مضاربة فظيعة عمت مرارا على إفقار الأهالي وإسقاطهم في العوز، بل هي مضاربات لا ينجو منها حتى المعمر الصغير، ويبدو أن الإدارة عاجزة تماما عن حماية الساكن الأصلي من أطماع السماسرة والمضاربين المحيطين به والذين يتسلطون عليه وعلى ابن جلدته الأقوى من الأول وأكثر استعدادا للمواجهة والصراع، إنه قانون التنافس الحيوي، اللامبالاة الطبيعية لدى إخواننا، فقدان الأمل العابر الذي يصيب أحيانا المعمر المتواضع، كلاهما يصدم بضراوة جشع المضارب وحب الربح

1- Le temp: «Comment Organiser l'afrique Du Nor», P.26.

وبعد أن تباع قطعة الأرض، يجد المعمر نفسه مهاجرا إلى المدينة ليعمل بناء أكثر تواضعا، أما الساكن الأصلي الذي لم يكن له طول حياته عمل آخر سوى الفلاحة فيتحول إلى "شماس ترصده وأهليه الفقر والحرمان .. ولا يجدان عموما سوى هذه " الكبيرة الطاغية " المسماة الإدارة للانتقاد ولإفراغ جام غضبهما، في حين لا تملك هذه المسكينة أي سلاح إزاء الجشع والطمع والمضاربة عديمة الشفقة. أما الفصل الأخير فيتمثل في هجرة الأهلي تحت راية الوعود الوردية بحياة أفضل من المشرق، يجره إيمانه تارة وأحلامه تارة أخرى.

فإذا وطأت قدماه الأرض المباركة اكتشف الخديعة الكبرى التي وقع فيها، وأنشأ بسرعة يكتب بلغته الجميلة رسالة إلى السيد الفاضل النبيل الكريم، قنصل فرنسا من أجل طلب إعادة ترحيله إلى الجزائر.

ما الذي ينبغي فعله لتجنيب الأهلي كل هذا الهوان ؟ ما الحل المقترح؟ لسنا أكثر دراية – في الحقيقة – من الإدارة العامة بهذا الأمر.

ها نحن أولاء نختم هذا الفصل، ويبقى البتُّ في أمر مدى استفادة الأهالي من هذه الامتيازات، وهل فعلا فعل كل أمر من شأنه تذويب الفوارق بين الأهالي والمعمرين، أم أن هناك اعتبارات تزيد هوة التفرقة كبرا سواء على المستوى المادي أم المعنوي ؟

فلنتذكر قصة آلاف الرحل أولئك الذين تم طردهم صوب الجنوب، مشكل عويص لا يزال تعقيده يؤرق الإدارة الجزائرية المنوطة بها مهمة المحافظة على التوازن بين العناصر المشكلة لمختلف أرجاء المعمرة، لا تملك إبداء الرأي في هذا الأمر، وربما تكون بعض التجارب محتاجة إلى وقت مديد كي نحيط بها ونبدي فيها الرأي الصواب الذي ستكون السنون قد شحذته.

أما هذا الفصل فلا يطمح إلى أكثر من تبيان بعض الوجوه التي يمكنها جعل المعمرة فضاءً للمصالحة وللحرية.

الفصل الثالث

"المدرسة"

لكي نجري إصلاحات على المستوى المادي لحياة الأهالي، دون المساس بالمصالحة بين سكان الجزائر اقتصاديا خاصة، اتخذت الإدارة الفرنسية تدابير عدة وقفنا منها عند أثنين ظهرا لنا هامين. وملموسي النتائج: الأمن، والتعمير. وكلاهما يخلق العلاقات بين الأهالي والأوربيين ويسهل أمرها ويقويها ويطورها.

إلا أن الاكتفاء بهذين الأمرين فقط من أجل تحرير هذا الشعب وتنميته والرقي بمستواه، يعد نقصا في كرم أمة متحضرة كفرنسا، كان لا بد، من أجل التقريب بين الناس ولم شملهم والتوحيد بين تطلعاتهم، وترقية معاملاتهم، كان لا بد من غزو العقول غزوا أخلاقيا معنويا.

هذه المهمة شجاعة وعسيرة، فتربية شعب كشعبنا الذي غاص في مجاهيل الجهالة طيلة قرون ليس أمرا يسيرا، ومهما يكن الأمر فالإدارة الفرنسية قد انطلقت في هذه المهمة التي فرضت نفسها — في الواقع — لسببين اثنتين.

من جهة كانت الدولة بحاجة إلى أعداد كبيرة من الموظفين من أجل التمكن من تسيير أمور هذه الكتل الكبيرة من الأهالي، من الجماهير التي لا تعي أوروبا جيدا عقليتها، ومن الجهة الأخرى، فمهمة فرنسا الأولية مهمة حضارية، ولا يوجد تمدن دون تربية وتكوين، أي دون تعليم، تعليم الغالب للمغلوب.

ما هو ملمح هذا التعليم ؟ كيف تعامل معه الأهالي هنا ؟ وماذا كانت نتائجه؟

هذا ما نريد بحثه لن نجيب السؤال الأول، ولن نبحث في أمر تنظيم هذا التعليم لأن الجميع يعرف أمره، ويراه ويراوده فيتعرف على برامجه في الثانويات، في الكليات، في "المدارس"، في الابتدائيات وحتى في المدارس/الأكواخ التي يعتني بها في كثير من الأحيان الأهالي أنفسهم، بل وينفقون عليها من لدنهم، بسبب ملاحظتهم عجز الإدارة الفرنسية عن احتواء كل طالبي العلم، وعن التكفل المادي بهم.

هدفنا في الحقيقة هو البحث عن التطور الذي سجلته مهمة التعليم طيلة الثمانين سنة التي رفرف فيها العلم ثلاثي الألوان على التراب الجزائري، لذلك سنقول كل الحقيقة حول السؤالين الثاني والثالث المطروحين أعلاه.

إن شعبنا قد بلغ -مثلما تكرر على مسامعنا الجملة التي صارت شهيرة – أقصى درجات التقهقر، وأدنى مواقع التخلف" لم يكن يستطيع، ولم يستطع أن يكون عند المستوى المنشود من قبل الغزاة الذين يعلون صوتهم السخي بضرورة تكوين الشعب المغزو وتعليمه. هيهات هيهات! ما أبعد ذلك الأمر عن الواقع! إن عقلية مسلمي الجزائر ظلت طويلا معارضة شرسة لفكرة دراسة اللغة الفرنسية، وحتى إذا كان مرور الوقت، وتطور العلاقات بين الأهالي والأوربيين، ورقة الصلات بينهم قد عملت كلها على خلق مدافعين ومناصرين، فإن أعداء كثيرين لا يزالون على الضفة المقابلة.

هل يمكن القول إن أغلبية الأهالي رافضة للمدرسة ؟ لا نعتقد أن مرد المسألة إلى الشعور، إن الإنسان في مثل هذه المسائل تابع لحاجته، والحاصل أن الجزائري لا يجد الحاجة إلى التعليم، لذلك فدفعه أو إغراؤه بالتعليم يجب أن يتم من قبل السلطات بوساطة خلق الحاجة إلى التعليم.

ثم إن الملاحظ هو أن تواجد المدرس الفرنسية لم يعد يقابل بتلك الجفوة القديمة. القاضي الناطق بحكمه وسط الجموع إثر المرافعة، مساعد الطبيب المداوي في عيادته، المدرس الذي يعلم أبناء "الدوار"، الخوجة الذي يترجم الوثائق في مكتب الحاكم، الوكيل المدافع في المحكمة العادلة المسالمة، كل هؤلاء أصبحوا يبدون للفلاح الأمي

أناسا اكتسبوا معارف خولت لهم شغل هذه المناصب النوعية ذات السلطة الخفية.

أعتقد أن هذا تحقيق كبير وانجاز ذو بال.

هذه الأمثلة والنماذج تغزو عقلية الفلاح وتغيرها شيئا فشيئا. إنها أمثلة حية وهي أقوى من كل خطاب نظري يمكننا التوسع فيه.

وحتى إن كان يواصل عدم إرسال أولاده إلى المدرسة، فإن هذا لا ينفي شعوره بأهمية هذه الأخيرة. وينبغي أن نقر بعد كل هذا بأن الساكن الأصلي لا يشعر بأية فائدة للمدرسة فيما وراء المصلحة، والفائدة الملموسة المباشرة، إنه لا يعي شيئا غير هذا، والتعليم الذي لا يعود على المتعلم بالفائدة يعد مجرد حمل يثقل صاحبه وكفى، أو حلية للتزين لا فائدة منها، أما المؤسف حقا فهو أن نجد أبناء الطبقات الراقية أيضا عديمي الإيمان بالتعليم لذات التعلم، إنهم يضعون التكوين في المرتبة الثانية بعد المال، وهنا نكون قبالة مشكلة أهلية 100% الوظيفية.

فالفلاح الذي يملك مائة هكتار ولا يملك سوى ابن واحد فقط، لا يمكنه بأية حال من الأحوال أن يحوله إلى فلاح، سيعمل كل ما بوسعه لدفعه كي يصبح "موظفا"، حارسا بلديا مثلا، وذلك عوض أن يجعله مساعدا له، في الفلاحة، مساعدا أكثر تكوينا

وأكثر نجاعة طبعا من والده. ذلك هو الواقع الذي نعرفه جيدا للأسف الشديد.

لقد صادفنا فلاحا قبائليا، نجح في فلاحته، وعندما بلغ درجة معينة من السير والراحة المادية، وجدناه شديد التحسر على أن أحد أبنائه مجرد محام لدى محكمة جزائرية، كان يتمناه "عادل" أو نائبا للقاضي، أو حتى "قايدا" ... إلخ، مثل أخيه الأكبر الذي ينعم بجزء هام من السلطة الإدارية والقضائية.

أما " فوقاطو" (محامي) وطبيب، فليست مما يثلج صدره، فقد كان يواجه كل محاولاتنا للشرح والاقتناع بهزة عنيدة ولا مبالية يكتفيه ... أم الابن فكان يقوم بدوره مسجلا نجاحا أكبر من نجاح السيد المذكور في ميدان عمله.

الانتماء إلى الإدارة، امتلاك السلطة، ولو جزءا تافها من السلطة، ثم التسلط على أبناء ديانته، إنه ذلك الميل الإسلامي الذي لا شك فيه، وهو نفسه الميل الذي يدفع إخوتنا الأهالي صوب المدرسة الفرنسية.

وحتى إن كان سببا حقيرا، فإنه أهم سبب يدفعنا صوب التكوين والتعلم، أما ما يجب أن ننتبه له فهو ألا نترك الأهلي المتخرج دون عمل، لأن مفعول ذلك على الجموع سيكون كارثة، ومع ذلك

فلا بد من الإقرار بأن الإدارة لا تستطيع أن تجعل كل أبناء مدرسته المتخرجين إداريين، فلا بد لهؤلاء السائرين على درب التحرر والتقدم من التعود على عدم انتظار الحلول من قبل الإدارة، إنه أمر عسير، ولن يتأتى دون موجات غضب واستياء، إلا أنه آت لا ريب.

هذا العصر بدأت تظهر في "المدارس"، فظاهرة العطالة عن العمل منتشرة بين المتخرجين، فمنذ سنوات وجد أغلب هؤلاء ملجئا جيدا في المغرب الأقصى، ولكن إلى ماذا سيؤول الأمر بعد سنوات قليلة عندما يصبح المغرب معتمدا على اليد العاملة المحلية؟ لا بد من التفكير في الأمور بجدية وعلى مدى بعيد! هذا هو التحدي الماثل أمام الإدارة حتى وإن كان الواقع ينفي أن يكون الأهالي بصدد التوجه صوب المدرسة بأعداد كبيرة، ولا ينفي - بالموازاة- أن الأهالي لم يعودوا اليوم تلك الكتلة الكبيرة العاطلة المشلولة السلبية التي كانت معروفة منذ ثمانين سنة، هنالك مواقف مع المعمرة تعرف النشاط الثقافي في العمل، في حين يملأ الكسل والتثاقل مواقع أخرى ... ولا بد - من أجل الإنصاف- أن نتساءل ماذا يمثل في حياة أمة قرن واحد من التربية والتوعية ؟ علينا مواصلة المعركة التربوية في المدرسة، من أجل نقل عدوى الإخوة الآخرين الذين قطعوا أشواطا هامة في هذه المسيرة، وسنرى القبس الفرنسي يغزو بيوت الأهالي وعقولهم.

وربما وجب تشديد اللهجة على ضرورة احترام الحياء الديني في البرامج من أجل تجنب كل حساسية في المدرسة، ولن يطول الزمن الذي تبطل فيه تماما المزاعم القائلة أن مدرجات ومقاعد المدارس الفرنسية فارغة تماما، والتي يروج لها الساسة الذين تملؤهم الأحكام المسبقة والنوايا المريبة المبيتة.

كتب السيد ريمون إينار Raymond Aynard صاحب الرأي الحصيف الجدير بالاحترام : "غالبا ما يكرر المتقولون مقولة أن مدارسنا في الجزائر فارغة ماعدا في أيام التفتيش، والحقيقة التي تأتي من الشهادات غير المتطرفة – واللامبالية – لبعض الإداريين الذين لا ناقة لهم في الأمر ولا جمل، والتي مفادها كذب هذه المقولة، بل الحقيقة تقول : إن مدارسنا تميل أن تكون ملآنة!" [1]

و ربما بلغنا النقطة التي نوجه فيها اللوم صوب الإدارات المحلية في بعض المناطق أين لا يبدو على المسؤولين أي استعداد لبذل المساعي المالية لإنشاء مدارس لصالح الأهالي.

في تقريره حول تعليم الأهالي، كتب السيد رئيس أكاديمية الجزائر "لا يبدو اهتمام بعض السلطات البلدية بتقديم مخططات تنفيذية مرتبطة بالتعليم، إن التعاون بين السلطات على مستوى

[1] L'œuvre française en Algérie.

الحكومة وعلى مستوى البلديات هو الميدان الوحيد الذي تبدو فيه نجاعة المخطط التعليمي أو فشله".

ماذا نقول يا ترى عن بلدية سكيكدة Philippeville، إحدى أول وأهم المدن التي دخلتها فرنسا بعد غزو الجزائر، والتي عجزت عن بناء أية مدرسة للأهالي منذ فتحها حتى عامنا هذا 1913، بالحجة الواهية التي هي قلة عدد الأهالي فيها[1]. ليست هذه هي التعليلات التي تستطيع تورية النوايا السيئة المبيتة لدى المسؤولين، إن نموذج سكيكدة صارخ فاضح، إلا أن الحقيقة المرة هي أنها ليست النموذج الوحيد. بعض البلديات تعتقد جازمة في النقص الأكيد لجودة ونجاعة العمال الأهالي ... في حين يحكم البعض على الأهالي بأن فترة تكوينهم لم تأت بعد، أما الفئة الثالثة فلا ترى في الأهالي سوى أعداء لها.

فيم السعي إذن من أجل تحقيق شيء يعتقده البعض لم يحن وقته بعد ويعتقده آخرون دون أهمية، وتراه فئة ثالثة أمرا خطيرا.

و ما أقوله لا ينفي وجود بلديات عقليتها جمهورية حقا، وهي بذلك لا تدخر جهدا كي تحقق أفضل النتائج في الميدان الذي نحن بصدده ومثال ذلك قسنطينة.

1- عددهم يقارب 8000 ساكن.

لهذا فإن القرار المتخذ من قبل رئيس الأكاديمية بالاشتراك مع الحاكم والذي مفاده نزع صلاحيات بناء المدارس من أيدي البلديات، قرار حكيم لا ريب فيه، ولهذا فإننا لن نضم صوتنا إلى صوت المتهمين الطاعنين في نوايا الحاكم مهما كان نوعها. خاصة متى ما أحطنا بجوانب عمل الحاكم المتشعبة، والتي قد تتهم في ظلها حتى بعض حالات الفشل.

ها نحن أولاء نبلغ النقطة الثالثة التي ذكرناها أعلاه.

"لا نعدد منذ 1877 حتى 1911 إلا 450 مثقفا من أصل خمسة ملايين أهليا وهو العدد الصغير الذي يضم المتعلمين المسلمين أيضا، أي أنه يضم أناسا وعيهم لا يتجاوز وعي أحد المستمعين إلى توما الإكويني!"[1] اعتراف عسير، لا يشرف لا الحاكم ولا المحكوم.

لا نستطيع أن نجلب الخير للناس ضد إرادتهم، هذا ما ستقولونه، نعم، ولكن مهما كانت البرودة التي يتعامل بها الأهالي مع المدرسة والتعليم وهو الأمر الذي بينا أسبابه، خاصة فيما يتعلق بالبرابرة – فإننا نعتقد أن عمل الدولة المعلمة كان يمكنه أن يكلل بنجاح أكبر مما رأيناه.

1- J- ALAUDE : la question indigène dans l'Afrique de Nord- son équivoque – une maladie de la pensée politique française.

والواقع أن الفشل يعود – فيما وراء النوايا السيئة للمسؤولين البلديين، وعدم اهتمام الأهالي وتقاعسهم – إلى وجود سياستين متناقضتين متجاورتين.

الجميع يعترف بأن الأموال التي تختزنها الخزينة الجزائرية ليست كثيرة، وبالموازاة نجد الفكر الجمهوري مؤمنا بضرورة تعميم التعليم من أجل تحقيق الهدف الحضاري للحملة الأوروبية، إلا أن الحديث عن هذا الأمر لا يصل إلى درجة دفع المسؤولين؛ حكاما ومنتخبين، إلى بذل الأموال اللازمة لتحقيق هذا الهدف. وهو الأمر الذي يزيده حدة كون فئة لا بأس بها مؤمنة بأن التعليم والتكوين ينبغي أن يمر بمراحل عديدة تبدأ بتحديد دائرة التعليم في طبقة محدودة لتشكيل فئة مثقفة عالية التكوين وجيدة التفكير. في حين الفئة المقابلة ترى الخير كل الخير في رؤية أعداد كبيرة جدا من المتمدرسين تجاه أسوار المدرسة الفرنسية كل عام، الأمر الذي من شأنه التأثير في عقلانيات وآراء وتوجيهات الأهالي في الصميم. هل هي سياسة رشيدة أم أنه تسرع يطبعه الحماس؟ الأكيد أن هنالك تفضيلا لا ريب فيه للكم على النوع.

هذان هما الاتجاهان اللذان ظلت الإدارة الجزائرية تتراوح بينهما بخطى متعثرة طيلة سنوات وسنوات، عاجزة عن الفصل النهائي في اختياراتها.

و نحن نميل بدورنا صوب الرأي الانتقائي لإيماننا العميق بأن عملية حشو أدمغة صبيان الأهالي بمعلومات قاعدية يلقنهم إياها متمرنون من فئة 600 فرنك سنويا ممن لا مؤهل لهم سوى عدم الرسوب النهائي في شهادة التعليم الابتدائي (في مدارس الأهالي طبعا)، عملية تبقى دون دخول الحقائق العلمية إلى العقل الأهلي، وكل خطاب يقول غير هذا لا يعد ويكون ترهات مزايدات لا ينخدع لا العقل الحصيف المنطقي هل يعني هذا أن " المدارس " لم تقم بأي دور على مستوى التعليم الابتدائي للمسلمين ؟ لا. إلا أن رغبتنا في الإنصات تجعلنا نقف متخوفين عند بعض النقاط. إن الحق واحد فلماذا إذن نجد برنامجين للتعليم، واحد للأوروبيين والآخر للأهالي ؟ لماذا هذه البرامج الخاصة بالأهالي، والتي هي قريبة من نمط عيشهم، من ريفيتهم المحتومة والتي تعلمهم تصويب النظر صوب الحياة لا صوب العلم بحد ذاته.

هل معنى هذا أن العقل المسلم أدنى من غيره ؟ ما الفرق بين الفتى "ألونسو تريفالو" وتربه "على بن أحمد" إذا كانا على الدرجة نفسها من التركيز وهما يتابعان دروس المعلم نفسه؟ هل " الشاشية" رمز للتخلف والدونية ؟ لقد برهن نفر غير قليل من زملائنا القدامى على تهافت هذا الاعتقاد. بل إنه تناهى إلى علمنا أن آخر الإحصائيات تقول بأن أفضل معدلات الرياضيات والفرنسية كانت من نصيب

الأهالي الحقيقة هي أن عقل الأهالي لا يقل عن أي عقل آخر في التفكير وفي التمثل إذا ما أعطى معلما جيدا، لهذا نزعم أنه حان الأوان لتصحيح أخطاء هذا الوضع، ولتوقيف إنشاء المدارس/الأكواخ، أو ما يسمى رسميا "المدارس الملحقة"، إنها لا تقابل إلا بالاستهزاء والتحقير، ثم إن نتائجها حقيرة جدا، إلا إذا كانت لغة النتائج الملموسة ستترك المكان للغة الإحصائيات. بالموازاة، مؤسسات النمط القديم أكثر احتراما وجدية ، والإدارة العامة ستجني خيرات جمة لو أنها عكفت على نشرها والإكثار منها، إن حاجيات الأهالي هي التي تملي ذلك، أما الذين يقولون إنها مدارس خالية من الأهمية فنقول لهم أن رأي الأهالي يفند مزاعمهم، ثم إن هذه الثقة التي يضعها هؤلاء في هذه الأخيرة تجعلها ناجعة ... بل إنهم مصرون على نمطها التعليمي، ولمن يقول إن نتائجها بطيئة جدا، سنقول: إن الأهالي قد صبروا طيلة قرون في ظل حكم فوضوي اعتباطي ويمكنهم اليوم، وقد حصلوا الأمن ويسر الحال أن ينتظروا قرنا كاملا بل قرونا إن تطلب الأمر، حتى تؤتي هذه المؤسسات أكلها.

بالنظر إلى كل هذا سيكون الإجحاف أن نقول : إن ما أنجز من أعمال التربية والتكوين لا يمثل شيئا بالنسبة لواقع الأهالي، وحتى إذا كانت ضراوة الحوار قد دفعت بعض الأصوات التي

يحركها الحماس والتحيز أكثر مما يحركها التأمل والملاحظة الجيدة، إلى أن تنفي كل فائدة لبرامج التعليم في الجزائر، إذا كانت هذه حال البعض فلن نستطيع بأي حال من الأحوال أن نعترف بالنتائج المحققة التي يشير إليها الواقع.

المشكلة هي أن بلد المتناقضات هذا، لا يسمح بظهور حلول اعتباطية، بل يجب عليها بالعكس أن تكون نتيجة تجربة طويلة ومعرفة متملية بالأشياء هنا، والمشكلة هي أن المادة جاحدة دائما، والنجاح ليس حاضرا باستمرار، صحيح أن التعلم العالي للأهالي قد غدا الشغل الشاغل للسلطات العمومية. صحيح أن "المدارس" إذا ما نظرنا صوبها من بعيد تبدو مهيبة، جميلة الأبنية، رحبة الأفنية عالية الأبواب، جليلة السقوف ... إلا أنها في أعمق أعماقها لا تختلف عن أديرة العصر الوسيط، إنها لكثيرة جدا الإصلاحات التي يجب أن تلحق بها كي تصير مختلفة عن " الزوايا " الحالية التي يبدو أن يد المستعمر لم ولن تنالها بتجديد، إلا أنه لا يجب أن ننكر أن النتائج المحصلة أفضل بكثير مما كانت عليه منذ عشرين سنة فقط، فرجال القانون المسلمون المتخرجون من هذه المؤسسات قد استحدثوا كثيرا من طرائف العمل المعاصر التي لم يعرفها القضاء والقدماء، إن نزاهتهم لا شك فيها وعمله ينضح رغبة في الارتقاء بالمستوى الخلقي

المحيط بهم وفي العمل على تطهير منصبهم من كل ما كان يشوبه قديما.

المدارس الابتدائية، وهي نموذج جيد للجدية في العمل تعطي نتائج ممتازة لن تفتأ تزداد امتيازا لو أن الإدارة كانت أكثر صرامة في اتخاذ القرارات الحصيفة وفي العمل بالمبدأ الجيد المتوارث: قليل من العمل وكثير من النجاعة.

بالنسبة لنا، نحن، المعجبين بالمؤسسات الفرنسية، حتى وإن حكم علينا بأننا متفائلون حمقى، لا يمكننا فصل شهادتنا المتواضعة عن هذه الكلمات التي قاله أحد الأفذاذ " إن تعليم المسلمين وإن لم يكن له من المفعول سوى ترك صدى على هضاب العرب للكلمة الطيبة وأريجا لبعض الفضائل الفرنسية يجعل ذكرى قلب أبوي حنون تعرش في قلوب الأجيال الصاعدة؛ ذكرى كيان متعال عن السفاسف، وهذا الأمر يجعل كل حرج يزول وكل عسر ييسر.

الفصل الرابع

"البلديات المختلطة"

إن هذا البرنامج السياسي والاقتصادي الواسع الذي يشم قطاعات الأمن والتعليم والتعمير سيقضي إلى قليل من الأشياء إذا لم يجد تطبيقاته في دستور نظام خاص، هذا النظام هو نظام البلديات المختلطة، إذا انطلقنا من هذه الإدارة المحلية سيثبت المثال الأعلى الفرنسي الذي يحمل السلم والازدهار والتكوين لجميع الناس وجوده بكل قوة ونجاعة وتفوق داخل المجتمع المسلم.

عرف سكان البلديات المنتقدون، المشنع بهم من طرف البعض والمعترف بهم المتساند معهم من طرف البعض الآخر مراحل هجوم وتجميد بالتناوب كان خلالها رجال السياسة والخطباء والإشهاريون من كل نوع، ومن كل جهة ومن كل تنظيم يقدمون المدح والإطراء لهؤلاء أو الشتائم واللعن الأولئك.

يبدو أن الوقت قد حان بالنسبة لنا كي نقول الحقيقة عن هذا النظام، نحن اللذين عشنا تحت سياط الإداري "والقائد" حينا وتحت ولا يتهم الرحيمة الرؤوف حينا آخر، وحتى إن لم نكن سنفصل فصلا نهائيا في أمر هذه القضية فإننا سنأتي هنا بشهادة

معيشة وصريحة لأهلي شاب يتابع بإعجاب الصراع الجزائري ما دام محترما وبعيدا عن التعصب، شاب لا أمل له سوى رؤية الالتحام على الأرض الشمال إفريقية للأفكار والآمال والمشاعر – وفي وقت سياتي – الدماء التي عمل على زرع بذورها أناس مثل آل بوجوا « Bugeau » وآل تيرمان « Tirman » وآل جونار « Jonnart » وآل لوتو « Lutaud ».

و لكن من هم رجال هذه الإدارة يا ترى؟ إنهم عديدون في الحقيقة، ونحن لا نذكر منهم سوى اثنين لأنهما بشهادة كل الناس مفتاح السياسة الفرنسية وهما: الحاكم والقايد بهذا الترتيب سنبدأ من الأصغر إلى الأكبر أي من رئيس القبيلة إلى رئيس البلدية.

يعينه ويعزله الحاكم العام، هذه هي حال المأمور الأهلي الذي زانته الإدارة العليا ببرنوس وقماش قرمزي، كرمز لتميزه وكإشارة إلى سلطته. أضف هذه الصورة كانت أكثر صحة وأكثر قوة منذ خمسين سنة. إذ كان هذا المأمور أكثر أهمية وأوسع مالا بسبب طبيعة الأجور، وإن كانت الحقيقة أنه كان أقل أهمية مما هو عليه اليوم. إذ لم يكن مطلوبا منه آنذاك ما هو مطالب به على أيامنا.

مأمور الأمس، محاطا بكل تلك الأبهة، وسائرا وسط تلك الهيبة وذلك الجلال، لم يكن مطلوبا منه شيء سوى الاعتراف بالعلم الفرنسي، والمحافظة على "سلم سلبي" بين القبائل، ولا شيء يهم إذا كان جزء من الضرائب يأخذ طريقه نهاية كل سنة صوب الخزائن الوطنية لتسديد شيء من النفقات المعمرة التي يضطلع بها الحكم المركزي، أما باقي المال فهو في خدمة نزوات معدة كل حاكم محلي متربع على عرشه تحت خيمة ما، أما حاليا، فالقايد أو الشيخ أو النائب الأهلي – لكي نسميه بتسميته الإدارية الرسمية– منوطة به في دائرته التي هي أضيق بكثير من دائرة صنوه القديم، مهام أكثر، وأدق مما كان للآخر قديما. إنه مسؤول بالدرجة الأولى عن أمن المعمرين [1]، الذين هم أناس يصعب جدا إرضائهم، وكذلك هو الأمر مع الأهالي. إنه المسؤول المادي والمعنوي على تحصيل وتسيير الضرائب التي لا يستفيد شخصيا إلا من جزء صغير جدا منها. وهو من يفصل دائما في المنازعات الناشئة بين أفراد دائرته، عاملا كل ما بوسعه لتجنب وصول القضايا إلى المحكمة، لأن ذلك مكلف جدا في ظل شح الخزائن المحلية. بكثير من المبادرة عليه إعانة البعض وتشجيعهم دون المساس بمصالح البعض الآخر، هذا هو دور هذا المسؤول الأهلي كما

1- قدم أحدهم شكوى مفادها أن نحل الضيعة المجاورة كان يأتي لأكل أعنابه.

نراه، وهو دور -متى أراد صاحبه القيام به على أكمل وجه- يتطلب الكثير من البراعة والحصافة. هذه هي العوالم التي يدور فيها عمل هؤلاء المأمورين الذين يعلق عليهم الحكم الفرنسي آمالا عريضة فإذا تساءلنا: هل هذه المهام مؤداة كما يجب؟ وقعنا في الحرج والارتباك.

بالتأكيد سيظلم الآخرين من ينكر نجاعة هؤلاء الأفراد، ومن ينفي عنهم كل فضل إلا أنه من مجانبة الصواب أيضا أن نقول انهم مأمورون نموذجيون. إضافة إلى معارفهم المحدودة تأتي منقصة أخرى هي تلك المنوطة بعرفنا فلكل عرف منقصته. يبدو غريبا وعجيبا الإقرار بأن ثمانية أعشار هؤلاء الأعوان "القياد" أميون. إلا أنه الواقع المعيش والمحسوس والمتزايد بإصرار من الشرق إلى الغرب. انهم لا يجهلون فقط القانون الإداري الفرنسي بل إنهم يجهلون حتى لغتهم ثم إن أعداد كبيرة منهم لازالوا يضعون علامة صغيرة (+) مكان الإمضاء رغم كون النياشين تملأ صدورهم متموقعة فوق شريط بنفسجي جميل. ليس هذا انتقادا للإدارة التي توزعها، ولا لوما لها، بل إننا بعيدون عن هذا الأمر تماما لعلمنا اليقيني بأن هذه الأمور قد حدثت من أجل ضمان وفاء الأتباع واستتباب أمور الرعية.

للأسف الشديد هؤلاء المأمورون الذين تزينهم النياشين ليسوا هم أعسر من يسلط الضغط على الأتباع، إذ توجد جيوش من الشيوخ اللذين يتسربلون بالبرانيس يتسمون ساعة "قايد" وساعة "آغا" وساعة شيئا آخر .. المشكلة أن كثيرا من الأعوان الأهالي يملكون تصورا غريبا لدورهم كإداريين، وإذ كانت ثلة منهم لا تقوم بالتجاوزات المشينة فإن أغلبهم يقبل بطيب خاطر أن يغمض عينيه حينما تقدم له هدايا وأعطيات من قبل أصحاب المصالح وحتى أصحاب الشكاوى ممن يأتون بقوارير العسل أو الزبدة وغيرها متسللين بخطاهم الآثمة لوضع هذه الهدايا في المخزن. والمشكلة أن الحكم يتم بأي شكل كان، بمعزل عن السير التقليدي للمخزن الذي يتقبل الأعطيات وبمعزل عن الرعية التي تقدم الهدايا .. فهكذا هي الأمور منذ كانت هذه البلاد.

لذلك فإن الخروف الذي يهدى إلى القايد ليلة العيد دون مناسبة و"الدورو" الذي يوضع في جيب ابنه أو أي جيب حواليه بمعزل عن عيون الناظرين والذي يسمى " البركة" ... كل هذا لا يصدم أحدا ولا يثير استغرابا- إنه النظام العادي للأشياء منذ 1870 وقبلها أيضا للأسف الشديد.

لذلك فإننا لن نطيل الوقوف بأبصارنا عند هذه الحقائق التي أصبحت عارية مألوفة لدى الجميع، ما نود الإشارة إليه هو أن هناك من يسلب هذه الأشياء من جيوب رعاياه سلبا للاغتناء السريع، هؤلاء لابد من اتخاذ تدابير رادعة في حقهم من قبل الإدارة وكذلك في حق معينيهم الذين يفتتون إلى جانبهم من خلال عمليات أصبحت معروفة مثل "الدبارة"[1] فيما يتعلق بالأراضي الجماعية و"البشارة"[2] فيما يتعلق باستعادة الأغنام المسروقة و"الكبار"[3] بالنسبة للأغنام المخصصة للأعمال الجماعية ... وكل هذه مداخيل غير قانونية يتفق على الخوض فيها الجميع عاليهم وسافلهم، قاصيهم ودانيهم.

توجد فئة أخرى أقل جشعا، إنهم لا يرفضون هدايا الرعايا التي تبدو لأول وهلة عربون صداقة قبل أن تتحول فيما بعد على أرضية رشوة. إنهم لا يفعلون شيئا لإيقاف هذا الأمر وإن كانوا لا يسلطون ضغطا على إخوانهم من أجل حدوثه. أخيرا توجد فئة ثالثة

1- فعل يقوم من خلاله أعيان قبيلة أو دوار ما بمنح قطعة أرض هي للعرش بدون مقابل.

2- منظومة يقوم من خلالها لصوص الأهالي بإرجاع مسروقاتهم لقاء مقابل ما من خلال شخص ما. ولوحظ أن كثيرا من الفلاحين معمرين وأهالي يفضلون التوجه إلى "البشار" أحسن من التوجه إلى السلطات الأمنية التي لا يستطيع في أغلبية الأحيان أن تفعل شيئا ضد اللصوص "البشارة" هم أصحاب البشارات والأخبار السارة.

3- الكبير هو رأس أي جماعة تابعة لإدارة ما يسمى أيضا "المزور".

من القياد يعوضون تكاليف أعمالهم وخدماتهم بطلب خدمات بالمقابل متأكدين من قضاء رعاياهم لها.

شيء غريب آخر هو أننا نجد أبناء الأكابر مزودين بالنزاهة المهنية وبأخلاقيات عالية في حين الفلاح الذي هو عموما مطالب بأن يكون رئيسا في دواره والذين نجده في كل مكان فهو حينا موظف جشع وحينا قايد مرتش وحينا آخر مسؤول قوي، الأمر الذي يقودنا إلى الاستنتاج بأن درجة النزاهة لا علاقة لها بدرجة الغنى وسعة الثروة وإننا نقف متفهمين أمام المأمور الأهلي الذي تجعله الحاجة يلجأ إلى أحد رعاياه من اجل خدمة ما. ذلك أن الأخلاق الإسلامية حاربت منذ القدم الصلات التراتبية بين الحكام والمحكومين، فنحن نجد على مر التاريخ ملوك المسلمين يضاحكون ويداعبون رعاياهم ممن يصادفونهم في الطريق مهما كانت بساطتهم وفقرهم. بل إن رسول الإسلام (ص) نفسه –ممهدا للقديس لويس المسيحي بشكل ما- لا يتردد في ساعات الحر في أن يجلس تحت شجرته المفضلة[1] في المدينة مستمعا إلى حميميات بعض أتباعه وشكاوي البعض الآخر من رعيته.

1- جاء في الأثر أن هذه الشجرة أصبحت تملك قدسية معينة، وأن كثيرا من الصحابة البسطاء قد أصبحوا يتعاملون معها تعاملا طقوسيا بعد وفاة الرسول (ص) الشيء الذي رفع عمر بن الخطاب إلى قطع الشجرة وحرقها لكي لا تكون العبارة والتقديس إلا الله.

ونلاحظ في مرحلة أقرب منا الأمراء المنتخبين من قبل السلطة التركية ينظمون جلسات بعد تعيينهم لاستقبال هدايا الأتباع والرعايا والقبائل لذلك فإنه سيكون من سوء التدبير السياسي أن نطلب من القياد أن يتحلوا بالنزاهة المهنية والوعي المؤسساتي المطلوب من الموظف الفرنسي والذي لا يصبح حاضرا باستمرار لدى هذا الأخير حينما يطيل التعامل مع الأهالي الذين يتعاملون بهذه الطرق تلقائيا.

إن أخلاقياتنا التاريخية قد أقرت ممارسات قديمة قوية لا تستطيع الإدارة الجديدة زحزحتها لذلك يفضل أن يعمل مأمورون من الأهالي على الحد من جشعهم وتقليص ما يأخذونه من العطايا وتجنب التهديد والممارسات الحقيرة التي تهدف إلى تأليب فئات ضد أخرى من أجل تحكم في الرقاب أهل وأنجع.

أما معارضة "الهدية" التي هي ليست ممارسة يختص بها القايد فحسب، بل يقتات منها الفقيه الإمام والمقدم، ويرونها دليلا على سعة سلطتهم ودوام وفاء أتباعهم .. بل إنه من المؤسف أن نجد هذه الممارسة تلمس أيضا "المدرس" الذي يعدها تعبيرا عن عرفان طلبته. أليس كثيرا منظر ذلك المدير الذي وجد نفسه في إحدى المدارس الإسلامية مجبرا على التدخل شخصيا وبنشاط جم لأجل إيقاف

سيل البرتقال والتين وقوارير الزبدة التي تتتابع من أجل تغذية "الشيخ المسلم" !؟

إن سلوك قوادنا الأهالي بعيد عن الانتقاد، لا شك في ذلك. وحتى أشد هؤلاء حماسا والذين هم مستعدون لحمل السلاح لأجل الذود عن أرض الجزائر ليسوا بمعزل عن مثل هذه الأوصاف، إنهم شبيهون بأسلافهم الذين عايشوا مرحلة ما قبل 1815.

إنهم دون فهمهم الحقيقة التالية: لا يصير المرء محبا لبلده إلا متى تحول إلى رجل جدير بالانتماء إلى هذا البلد.

فما معنى التعبير عن الولاء لحاكم هذا البلد إذا كانت كل سلوكاتك تمس به وتلحق وصمة العار باسمه؟

إن جعل القائد الأهلي يبلغ درجة الشعور بمتطلبات منصبه ودرجة القيام بواجباته بضمير يقظ ونعيد التذكير بأن القياد لا يفهمون جيدا طبيعة منصبهم ولا يفهمونها تماما في بعض الأحيان ... تلك هي المهمة التي من شأنها جلب السعادة لمواطني الأرياف. ونعتقد أن توزيع دليل تكتب فيه كل هذه الأمور هو شيء شديد الإفادة.

هنالك من هؤلاء من يرى الإدارة عاجزة دونه وغير قادرة على التخلي عنه والتضحية بخدماته وبمركزه اللامع بمجرد أن أحد أسلافه هو عين من أعيان المنطقة. وتفكير (كان أبي وكان

جدي) اخرق ومن شأنه أن يسقط من برنامج التحضير والتمدن الذي نحن بصدد وصفه. نعلم جيدا أن لهؤلاء الأشخاص المذكورين أعلاه جيدهم ورديئهم دورا لا يخص لذلك فإنه على الإدارة – بالموازاة مع ما ذكرناه – أن تنظر في أمرهم كمستخدمين لديها فلا تعاملهم بدونية كما نرى وأن تعيد النظر في نظام رواتبهم وصلته بمقامهم وبالنظر صوبهم. ونقف قليلا عند نظام الرواتب هذا الذي لا يخلوا من ثغرات. فمن الغريب أن نجدهم منذ زمن بعيد وإلى اليوم يتقاضون عشر مبلغ دخل مقاطعتهم من الضرائب. وهل يمكن تصديق الحقيقة التي مفادها أنه على اتساع رقعة فرنسا لا يوجد إلا قائد أهلي واحد ووحيد يتقاضى أكثر 4000 فرنكا سنويا. ها هي ذي بعض الإحصاءات فيما يتعلق بدخل القياد:

1 شيخ يتقاضى من 0 إلى 100 فرنك سنويا.

9 شيخ يتقاضى من 100 إلى 200 فرنك سنويا.

22 شيخ يتقاضى من 300 إلى 400 فرنك سنويا.

39 شيخ يتقاضى من 400 إلى 500 فرنك سنويا.

51 شيخ يتقاضى من 500 إلى 600 فرنك سنويا.

59 شيخ يتقاضى من 600 إلى 700 فرنك سنويا.

50 شيخ يتقاضى من 700 إلى 800 فرنك سنويا.

67 شيخ يتقاضى من 800 إلى 900 فرنك سنويا.

72 شيخ يتقاضى من 900 إلى 1000 فرنك سنويا.

44 شيخ يتقاضى من 1000 إلى 1100 فرنك سنويا.

58 شيخ يتقاضى من 1100 إلى 1200 فرنك سنويا.

55 شيخ يتقاضى من 1200 إلى 1300 فرنك سنويا.

45 شيخ يتقاضى من 1300 إلى 1400 فرنك سنويا.

41 شيخ يتقاضى من 1400 إلى 1500 فرنك سنويا.

25 شيخ يتقاضى من 1500 إلى 1600 فرنك سنويا.

34 شيخ يتقاضى من 1600 إلى 1700 فرنك سنويا.

31 شيخ يتقاضى من 1700 إلى 1800 فرنك سنويا.

20 شيخ يتقاضى من 1800 إلى 1900 فرنك سنويا.

16 شيخ يتقاضى من 1900 إلى 2000 فرنك سنويا.

12 شيخ يتقاضى من 2000 إلى 2000 فرنك سنويا.

10 شيخ يتقاضى من 2100 إلى 2100 فرنك سنويا.

13 شيخ يتقاضى من 2200 إلى 2200 فرنك سنويا.

10 شيخ يتقاضى من 2300 إلى 2300 فرنك سنويا.

7 شيخ يتقاضى من 2400 إلى 2400 فرنك سنويا.

7 شيخ يتقاضى من 2500 إلى 2500 فرنك سنويا.

2 شيخ يتقاضى من 2600 إلى 2600 فرنك سنويا.

5 شيخ يتقاضى من 2700 إلى 2700 فرنك سنويا.

1 شيخ يتقاضى من 2800 إلى 2800 فرنك سنويا.

1 شيخ يتقاضى من 2900 إلى 2900 فرنك سنويا.

1 شيخ يتقاضى من 3000 إلى 3000 فرنك سنويا.

4 شيخ يتقاضى من 3100 إلى 3200 فرنك سنويا.

2 شيخ يتقاضى من 3300 إلى 3400 فرنك سنويا.

1 شيخ يتقاضى من 3400 إلى 3500 فرنك سنويا.

من الواضح أنها رواتب غير كافية تماما وأنها عديمة الصلة بالخدمات المطلوبة منهم، وهو الأمر الذي يفتح الباب أمام القيل والقال من قبل قائد يتكون حريمه من 15 عضوا ويجد نفسه مجبرا بين الحين والآخر على استقبال ضيوف نوعين عجز عن خدمتهم

براتبه فقط، بل إنها تكد تكون حقيقة الدعوى القائلة أن هذا التعامل هو تشجيع على السرقة. وهذا الكلام الذي لن يشكك فيه أحد شهادة جيدة على ما ذهب إليه "إن نقص النزاهة لدى القياد هي شيء كالمذهب لدى جمهور الأوروبيين وهي أمر مقبول ولو بشيء من الحدة في الأوساط الإدارية.

...إن وعي الإدارة العادي بمثل هذه الأسئلة هو وعي ربات البيوت: التجاوزات مقبولة ما لم تتجاوز الحد المتعود عليه وما دامت الأمور تسير على ما يرام"[1] ولكن أين يتوقف هذا الحد الجماعي. هل إن المسؤولين لا يمدون بصرهم إلى هذا الأمر بحسب مستويات نظرهم.إن الأمر بالأهمية التي تستدعي الإجابة على هذا التساؤل ومراعاة هذه القضية.

ها إننا الآن ونحن نختم السنة الأربعين لا زلنا نتحدث عن تراتبيه الوظيفة وعن تقديم وصفة علاج لأعوان الأهالي. الأمنية الأولى في هذا الإطار والتي رفعت إلى المجلس الأعلى للحكم يعود تاريخها إلى 1878 وتم تجديد رفعها مرارا أعوام 1892، 1894، 1896، 1903، 1911، 1912 من قبل عدة مجالس انتخابية ولا زال هذا الأمر في طور المشروع عم 1913!

---

[1] R- Aynard ancien directeur des affaires indigènes au gouvernement général de l'Algérie: l'œuvre française en Algérie, P. 233.

أخيرا ورغم معارضة مجموعة من الإقطاعيين تشكلت لجنة لدراسة هذه المسألة عن كثب، ورعت في العمل، إنها تقترف مجموعة من الإصلاحات التي نراها شخصيا جيدة على العموم. وإننا لنقو من هو متخوف من زوال نظام القياد من الثغرات الاجتماعية المرجوة بأن المثل الفرنسية الجمهورية ومصالح رعاياها لا تكمن في المحافظة على هذا النظام الذي أكل عليه الدهر وشرب.

بالنسبة لمفكر همه الحق والعدل، تبدوا الظروف واقفة ضد القائد الأهلي، وهي ظروف مردها عدم انسجام الإدارة في تعاملها معه. فهي تكلفه بمهمة عسيرة لا يتقاضى لقاءها إلا أجرا زهيدا، ثم عن وظيفة تجعله مجبرا على تحمل مصاريف مرتفعة من أجل المحافظة على الموقع الاجتماعي المتماشي مع منصبه الذي يملك جانبا إداريا وجانبا آخر شكليا استعراضيا. فبمجرد مجيء مسؤول ووزير إلى إحدى المقاطعات، يجد القايد نفسه مجبرا على تقديم واجب الضيافة بكل ما يستتبعه من التكاليف، بعد أن يقود الوفد الشرفي.

الحاكم ينتقل في زيارة تفقدية من يا ترى يستقبله؟ إنه القايد بلا شك أما العون أو الحاكم فهل من واجبهما فتح تحقيق قانوني؟

إنهما يقضيان الليلة لدى أتباعهما. إن مستقبل وموزع الإعانات اللذين يقومان بمهام تستغرق وقتا طويلا يفعلان الأمر نفسه إذ لا يتوجهان على أعوان الدرك لطلب المبيت من يدفع إذن ثمن كل هذا؟ ليست خزينة الدولة بلا شك.

ما يحدث أنه يتم اختيار القايد من أفراد العائلات الغنية حتى لا يتحمل محمد بن مبارك تبعات زيارته. لقد وضحت التجارب أن الآمال التي أسست على هذا النوع من الاختيار قد باءت بالفشل، ولكن إذا ما افترضنا أن النظام الذي نحن بصدد الحديث عنه غير قابل للطعن كيف إذن تم - في وقت مضى- تعيين الشويش وطباخ رجال السياسة أصحاب النفوذ، وفرسان البلديات المختلطة الذين يتمثل استحقاقهم الوحيد في البقاء لسنوات طويلة في الخدمة الخاصة للسيد الحاكم أو لزوجته المحترمة.

هناك في هذا المقام ما يدعوا إلى احتقار هذه الوظيفة والتقليل من مصداقيتها بفعل هذا الشطط. هنالك مجموعة من التعيينات عملت على إفساد واجهة هذه الوضعية التي كانت فيما مضى تتمتع برونق كبير. الوضع اليوم كالح للأسف الشديد والحق أن الإدارة على أيامنا على علم سيء ومحدود بمأموريها وعمالها بل إنها

أكثر اهتماما بعمال الداخل والخدم في البيت منها بمستخدميها الإداريين.

إنها إدارة يتجاذبها في مسألة التعيينات تياران متقابلان لا بد من الفصل في أمرهما فصلا نهائيا: إما اختيار هؤلاء القواد من بين أبناء عائلات الأهالي المرموقة من أجل استثمار المكانة الراقية والسلطة المعنوية التي لهؤلاء الأعيان مثلما كانت عليه الحال أيام الإدارات العربية. أو ديمقراطية المنظومة وعدم فتح باب الترشح لهذا النوع من المناصب الحساسة إلا لمن هو ممتاز على الآخرين بكفاءته واستحقاقه الشرعي.

وإننا لنصر بأنه في الحالتين لا بد من دفع استحقاقات المنصب وإجبار أصحاب هذه المناصب على الالتزام بمجموعة من الشروط وأداء مجموعة من المهام المحددة سلفا.

لن نبلغ درجة إرشاد الإدارة الحصيفة إلى أدق تفاصيل هذه العمليات التي نحن بصددها فنحن واثقون أن النخبة المذكورة أعلاه ستحرر مذكرة بالإصلاحات المقترحة والتي ستشمل كل التفاصيل التي نعلمها وأكثر منها.

فلنحاول الآن التوغل أكثر في قلب البلديات المختلطة. ها هي ذي بنايات جميلة تتوسط القرية مختلفة عن باقي البيوت المتواضعة

والأكواخ الحقيرة من حيث لونها الأبيض، ونظافتها البراقة، إنها تجلب الاحترام بهيبتها الشديدة وسط الريف الجزائري. وفوق أبوابها الخشبية الجميلة المنقوشة يرفرف العلم الفرنسي، يحرسه فارسان رائعان بلباسهما الرسمي، البرنوس الأزرق المخيط بظفائر صفراء والمرمية قلنسوته إلى الخلف.

إنها "البرج" الإداري، هنا يمكث "الحاكم"، أما "الدايره"، برغم مظهر الحراس الشرسين الذي يحيط بهم، فلا يمانعون ضد دخول أي كان إلى البرج. وقد عبرنا عديد المرات ممرات وأروقة الأبراج الإدارية التي يملؤها رجال، نساء وأطفال من كل عمر، يقبعون هنالك في الانتظار المعهود لديهم كي ينادى على اسمهم لعرض شكواهم وقضاء حاجاتهم. حتى الذبابة التي تعبر المكان الصامت يمكننا سماعها.

ما الانطباع المنبعث من مكان مماثل؟ لن نتوسع كثيرا في وصف تفاصيل وجوانب هذه السلطة التأديبية المنوطة بالحكام الإداريين تحت العنوان المسمى "الأهلوية". كل ما سنقوله قد قيل من قبل. ما أكثر ما ردد المدافعون عن الشأن الجزائري ملاحظاتهم حول قسوة العمل، وسوء المعاملة التي يتعرض لها هؤلاء المساكين، وما أكثر ما سحبت الريح العابرة أصوات الذين

يقولون "أن دور الإداري الحاكم ليس فقط ضرب المساكين، ومعاقبة الرعية".

سنعمل فيما يلي على رسم صورة بعيدة عن كل تحيز للحاكم النمطي الذي يمكن لأي كان أن يلاقيه في الجزائر ودون التوسع في تعداد الوقائع، يستوقفنا نوعان من "الحاكم" في الجزائر:

ذلك الذي ينتقل بنفسه إلى الدوار يخالط الناس، يستمع إلى "شكواهم" أمام الملأ، يتواصل مع الأهالي، يسأل بعضهم سرا، يحاول بكل الطرق التوغل في أرواحهم الموصدة دون الأجنبي، كل ذلك من أجل التعرف أكثر على عقلية من يحكمونهم، هذا الحكم، حينما يعود إلى كرسيه، إلى مكتبه، يدون ملاحظات شخصية، ويصدر ملاحظات وأحكاما حول الإصلاحات الواجب القيام بها منتظرا أقرب فرصة لتطبيقها.

إن هذه الجولات الميدانية ثرة الأهمية. سوق أسبوعية يكبر حجمها فإذا به يسيجها بحائط، ويبني داخلها حوانيت وأكواخ ضد الأمطار المفاجئة وضد حرارة الصيف، ثم يكتب إلى معينيه كي يبنوا الطرق ويحسنوا المعابر الأساسية صوب السوق، أرض من أراضي البلدية خالية. وهو ذا ينشئ فيها مشتلة، ويجعلها تنتج

أخصب المزروعات وأكثرها جلبا للربح ثم يشجع الأهالي والقياد على الالتفات إلى ذلك الأمر واستثماره بدورهم.

أحيانا أخرى تجده ينشئ معصرة زيت عند سفح هضبة ما، يكلف بحراستها بعض رجال الأمن إلى جانبهم أهالي يساعدونهم لقاء أجور، ثم يشتري الغلة ويحولها إلى إنتاج يشرف على بيعه فيما بعد في المزاد العلني والمداشر المجاورة، جالبين معهم المال ومساهمين في ملء الخزائن المحلية دون اللجوء إلى ضرائب. لتصير بذلك الحياة أكثر كثافة، وعجلة التعامل المالي أنشط وأنجع.

لا يستطيع مثل هذا العمل أن يدهش خيال الأهالي، ثم إن المثال سيُحتذى بسرعة والخير سيعم الجميع ليتحول الفرد إلى حلقة في سلسلة اقتصادية منتجة وجالبة للربح والمنفعة العامة، بدلا من بقائه خاملا يقاسم حيواناته الأعشاب والنبات.

هذا النموذج لا يوقفه ثلج ولا برد ولا مطر ولا ريح، ولا تخيفه الأخبار الأسبوعية التي تأتي دوريا لتروي فضائحه وتكشف مستوره للمسؤولين وأمام الجميع بين يدي رجل مخلص للعمل متفان في إخلاصه مثل هذا الحكم الجائر بخمسة أيام سجنا و15 فرنكا كضريبة ردعية ضد كل من تخول له نفسه رفض الانقياد للأوامر، هذا الحكم لا يصير ملجأ وحلا مخلصا، بل إنه يصبح

شيئا مفيدا، لأنه أصبح دليلا على هيبة المؤسسة ورجالها لا سمة دالة على القهر والتسلط والتجبر.

صرامة، وحيوية، سواء في العمل أو في العقاب وفي الجزاء الحسن. هذا هو النموذج الذي نحن بصدده، والذي عرفناه عن كثب وعايشناه بقدر يسمح لنا بتقديم الشهادة.

أكل الحكم على هذه الشاكلة؟ لا، للأسف الشديد، فكثيرون لا دور لهم سوى الدور الذي تلعبه علبة البريد ويلعبه أبسط إداري مستخدم في التواصل.

بيروقراطيين حدّ القرف، لا يتركون أبدا أفراحهم العائلية لصالح جولة تفقدية لأحوال الرعايا التي لا يسيرونها إلا على الورق وكفى. أما إذا خرج فلكي يسير في طريق مجهز للزيارة، يعبره ثم يغرق في المراسيم والشكليات لكي ينصرف واعدا بالنظر عن كثب في أمور الشكاوي والمراسلات التي لا تنتهي. ثم يتوقف الأمر عند هذا الحد. وسط كلمات ترحيب، وكلمات توديع، وكلمات على شرف هذا وذلك، وموسيقى حماسية لتوديع السيارة الرسمية المنطلقة من البرج، إلى حيثما أتت.

إنه حاكم لا يدري شيئا عن حال الفلاح ولا وضعية الكوخ. ساعات عمله يحددها هو على هواه: المعنى ببساطة هو أنه إنسان

لديه ساعات عمل، إنه يقبع في بيته طوال النهار دون أي شغل. في حين يستيقظ أحد أصحاب المصالح على الرابعة صباحا، يسير لكي يكون على الثامنة في البرج بانتظار سعادته، لكي يجد نفسه على الرابعة، الخامسة أو السادسة مساء، قبالة شاوش أو حارس أو خوجة سعيد بدوره، وسط ألبسته الجميلة الفخمة التي يعتني بها اعتناء جيدا رغم أنه لا يتقاضى سوى 5 فرنكات، ولكي يقول له أحد هؤلاء الآخرين -وذلك في أحسن الأحوال- : "غدوة"، تلك الغدوة الشهيرة. ككل موظف جزائري، مسير مجبر على الاعتماد على الصلة الحساسة بينه وبين مستخدميه. إلا أن الواقع يفرض عليه أيضا أن يحسب ألف حساب للصلات التراتبية بينه وبين مسؤوليه. إن عليه في نهاية الأمور أن يحافظ على التوازن الحسان جدا بين مصالح الأوربيين ومصالح الأهالي.

وفي النهاية، تدفعه هذه الوضعية إلى توكيل معينيه للنظر في أمور الرعية؛ ثم تنتهي به الأمور إلى أن يصبح لا يرى شيئا إلا من خلال عيني معينيه، إلا أن الأجمل هو أن توضع المسؤولية في موضعها، وهو أن يتمكن صاحبها من فرض حدود لها.

إن مستخدمي الإدارة من النواب على العموم -ليسوا طبقة جادة. أحيانا نجدهم أصغر بكثير من مهام في مثل أهمية المهام

الإدارية لبلدية مختلطة، وأحيانا تراهم تنقصهم التجربة... وقد لوحظ مرات عديدة على العنف للبت في الأمور.

مسؤول كهذا عاجز بالتأكيد بارد وعديم الإحساس. إنها الصورة النموذجية للملك المسلم. بل إننا رأينا حالات لم يعمل بقاء المسؤول لسنوات مديدة على رأس البلدية، إلا على المحافظة على امن ضمنه أحد السابقين، نتيجة جميلة ولكنها غير مرضية طبعا.

وضع الأهالي في ظل حكم مسؤول كهذا ليس خطيرا. بل إنه لا يؤخذ حتى مأخذ الجد. يحدث أنه -تباعا لتقرير من أحد القياد- يقرر المسؤول العقاب، فيكلف المعاقب بنزع حشائش بستانه وانتهى.

إن المشرع يرى في هذا الوضع وسيلة للإنتاج والخصوبة. إن قانون الأهالي، في حال تطبيقه ضمان أكيد للأمن العمومي، وقد أعطى هذا التطبيق نتائج جيدة في مناسبات عديدة. المجنون وحده يطمع في إرسال فلاح يرفض الجري صوب غابة تحترق بالماء إلى المحكمة لمحاكمته على العصيان، أو يرغب في مقاضاة خماسي تهمة مراب مريب يأكل عرقه مخفيا طمعه تحت اللبوس النبيلة للمعمر او الخوذة المهيبة التي تعتلي رأس قائده. هذا أمر يعرفه

الجميع. هذان نموذجان منتشران للحاكم كما يمكن أن نراه في الأرياف الجزائرية.

يوجد نموذج ثالث، أسوأ للأسف الشديد، وأقل عددا، خاصة منذ بدأ في معاقبته وردعه. إنه نموذج لا يفكر إلا في الاغتناء.

وقع بين أيدينا تقرير منذ سنوات، يتحدث عن مسير وعن خوجته، فينقل أن هذين لا يتلاعبان فقط بالأملاك العمومية، بل إنه قد ثبت أنهما نهبا واستويا على ما يقارب مائة وخمسين قنطارا من الشعير، وحوالي مائة خروف!!

لا ندري تماما ما هذه الأشياء ولا صلتها بهذا المنصب. لقد اتخذت الغدارة العليا في حق هذا المسير أردع التدابير وأقساها، بطرده رغم كونه رب عائلة وكونه على أبواب التقاعد.

لا بد من الحديث عن التجاوزات، والإقرار بوجود النقائص، إلا أن هذا لا يلقي بظلاله على الغدارة العليا التي تحتوي على مسؤولين رائعين نموذجيين محترمين.

لقد كتب بعضهم بأن "الأفعال المشينة للمسيرين، مضافة إلى الحكم القهري المستبد والاعتباطي للجماعة والشيوخ" وقد ساعدوا على ظهور جو "لا يخدم مصالح الإدارة الفرنسية"... ودون

التشكيك في نوايا المؤلف[1] لا بد من الفصل في نقطة غامضة بعض الشيء.

إن الجو السائد في أوساط الأهالي، موجود منذ زمان على حاله، لا هو أفضل ولا هو أسوأ. إن الفلاح لينظر مشدوها صوب المسيحي "الرومي" الذي يشيد الجسور، ويتناقل الأخبار من قارة إلى قارة عبر أسلاك النحاس، الذي يحرك الجماد، ويحصد بواسطة آلات قوية وسريعة، وهو لا يحبه لهذه الأسباب بالذات. إن عجزه إزاء المسيحي يجعله يكتفي بالسلام السائد، يتمتع في هذه الحدود ويتحمل أعباء هذا الوضع.

إنه يجهل الماضي، فلا حسرة لديه على ماضي الإسلام المجيد الذي لا يعرفه، وهو دون شعور "الوطن"، وطنه كوخه، ودواره، وقبيلته، والموضع الذي عاش فيه أسلافه.

الحقد الديني الذي يرعاه للكافر ليس هاما إلى الدرجة التي تتداول. أما الهوة التي بينه وبين جاره الأجنبي فهي هوة الأحكام المسبقة. فما إن يجلس على مقاعد المدرسة الفرنسية حتى نكون قد ربحناه. ويوجد مسلمون آخرون أفظاظا رغم مظهرهم الخارجي الموحي بالعكس.

---

[1] Charles Michel, conseiller général de Tebessa : la question indigène.

ولم لوم القياد والمسيرين فحسب؟ المترجمون، المحضرون القضائيون، القضاة والمحامون، أليس بينهم أناس مريبون تشوبهم أكثر من شائبة؟ إن هذا الأمر منقصة اجتماعية إفريقية لا ريب فيها. لهذا فإن الفرز عملية صعبة. والنظر إلى المستقبل الأفضل يطالبنا بغض الطرف على بعض النقائص التي قد نجد لها مبررا في الطبيعة البشرية الضعيفة دائما أمام الطمع، وقبالة بريق الذهب.

وإذا كانت هنالك ظروف ما، ومعطيات أو أفعال معينة تأتي أحيانا لكشف بعض النوايا المريبة، فتصور لنا الرجال المذكورين على غير الصورة التي كنا نراهم عليها، فإن الرجل الحصيف منا عليه معالجة هذه الأشياء بكثير من الذكاء واللطافة ورجاحة العقل والقدرة على الإقناع اللازمة.

لا بد من التعرف على بعض المعبرات بكل ما فيه من روح الخداع، ومن العمليات التحتية الخفية، لكي تفهم جيدا المجهود اللازم لمثل هذه الأوضاع وأمثال هذه الأماكن.

لذا علينا توجيه ما يجب من المدح لهذه الأعمال، وتشجيعها فعلا وقولا واعترافا بالعرفان لمن هم قائمون على تسيير هذه البلديات المختلطة عسيرة الأمر، باذلين قواهم وأفهامهم

الفصل الخامس

أوراق الشعب الجزائري

عند دراسة الوضع الاجتماعي للأهالي، لا بد من الانطلاق من النقطة التالية:

هنالك مجموعتان كبيرتان يمكن تمييزهما بيسر: القبائل، عرق من سكان الجبال الأشداء العاملين في الفلاحة والساكنين لجبال بلاد القبائل دون غيرها والبربر المعربون الذين يأهلون باقي البلاد.

وهنالك فئة أخرى لا بد من ذكرها: الكراغلة، المنحدرون من التزاوج بين الأتراك والبربر، أو بين الأتراك والعرب، أما العرب بالمعنى الخالص للكلمة فلا وجود لهم.

وكل هذه التشكيلة الشعبية –وبعد وثنية سابقة– تدين بالدين الإسلامي إلا أن عناصر هذه التشكيلة لا تفتأ تحتفظ بعادات، سلوك، وحتى عقائد قديمة مما ترسب من ماضيها العقيدي السابق للإسلام، وسنرى كيف أن كل بقعة وكل جماعة وحالهم في ذلك كحال الفرنسيين في القرون الوسطى –

وكحالهم اليوم أيضا، حسبما أكد لنا أكثر من مؤكد ثقة-
تملك شيوخ طريقة (مرابطين)، وأولياءها الصالحين، وكراماتها
وأساطيرها وحتى النبلاء وعلية هذه الأقوام -وحالهم في ذلك
كحال العوام والبسطاء- متشبعون بالميتافيزيقيات والماورائيات
أكثر من تشبعهم بالتدين الصحيح.

تسعة أعشار أبناء ديننا تحركهم الأحكام الدينية السابقة
وكلهم مؤمنون بشدة، عدا أقلية مؤمنة غير ملتزمة بالشعائر...

ولا يغرّن أحدا ما نراه من إعلان بعض المثقفين وأبناء الأكابر
للانتماء إلى الماسونية، أو من اللهج بالإلحاد، "لأن المفكر المسلم
الحر مستعد دائما لانتقاد بدائية الفكر المسيحي ولكنه لا يسمح
أبدا بالمساس بعقيدته"[1].

هذه الخواطر بحاجة أكيدة إلى تناول أعمق وتحليل أدق،
وسنعمل فيما يأتي على تبيان العوائق التي تعترض الفكر الفرنسي
- بسبب الأحكام الجاهزة المذكورة أعلاه- وتمنعه من التغلغل
في الروح العربية البربرية... إلا أن العاجل هو -بالتأكيد- وصف
نتائج البرنامج الإصلاحي للإدارة الفرنسية الهادف إلى تحسين وضع

1- André Servier : Le Péril de l'avenir, le nationalisme musulman en

رعاياه، وكذلك تبيين الحالة المادة للأهالي، وهو الوعد الذي
قطعناه على أنفسنا في بداية هذا الكتاب.

سواء أكانوا قبائل بربرا معربين أم كراغلة، فإن هنالك
تقسيما آخر لا بد من ذكره لأنه يلعب دورا كبيرا وفهم الوضع
العام، إنه تقسيم الشعب الجزائري إلى "فلاحين" و"أعيان"...

والفريق الأول هو الأهم لأن ما تم تحقيقه من إنجازات يعود
الفضل فيه إليهم، فأغلبهم عمال، وهذا ما يجبرنا على تخصيص
جل كلامنا لهم.

لقد منح الفلاح للإنجاز المذكور مادته الأولية الأرض، ثم
منحه ذراعيه القويين، ولولاه، لما كانت سهول غابة سطيف ولا
المتيجة على ما هي عليه.

لا أحد ينكر ذلك، إلا أنه من الغريب أن نلاحظ أنه في كل
مرة يعلو صوت ينتصر للفلاح، تبرز إلى الساحة آراء متعارضة
متناقضة، ولا أتسرع فأقول إنها آراء على خطأ. بعضهم يقول إن
الفلاح مقموع مظلوم وإنه تعيس حقا، والبعض الآخر يقول إن وقت
التأسي لحالة الفلاح والبناء عليه لم يحن بعد.

من على خطأ ؟ من على صواب ؟

سنعرض بسرعة آراء هؤلاء وأولئك.

الفريق الأول يقول أن الفلاح قد يفقد الأرض التي كان فيما سبق يتمتع بها قانون نزع الملكية حرمه من جزء هام من أرضه، ثم أوامر الحظر المصادرة على الأملاك التي كثيرا ما تأتي بسبب خارجين عن القانون، ويتورط الفلاح من حيث لا يدري فتصادر أملاكه بسبب عمل إجرام ما.

وما بقي من همة تكسره الأيام وعنت الوضع وهو - كما نرى- معرض لأشق الأعمال كلها حراسة الغابات، النقل الرسمي، شرطة القرية... وإذا شئنا الاختصار نقول إنه مثقل بواجبات كثيرة دون كثير من الحقوق، إذا ما قورن بزميله في فرنسا أصحاب هذا الرأي من أهل المنطق والحسابات الجادة المنظمة الذين سيقنعونك بيسر كبير.

أما الفريق المقابل فيعارض هذا الرأي قائلا: لقد وجدت مظلمة دائما في التعامل مع هؤلاء الفلاحين: لا نقاش في هذا الأمر، وإذا كان هذا التفاوت وهذا النقض الفادح في العدالة في معاملة الفئة التي نحن بصددها أوضح اليوم أكثر من ذي قبل فإن ذلك قديم معروف متعود عليه لدى الأهالي.

نلاحظ في كل من إنجلترا، ألمانيا وفرنسا تفاوتا كبيرا بين أصحاب الثروات الطائلة لسبب واحد هو الصراع الاقتصادي، فهذا الأخير هو الذي سمح بوجود هذه الأوضاع أنه مرض من أمراض العصر، إلا أنه مرض غير خبيث.

إن هذه الطبقة العاملة، والتي كانت بالأمس القريب طبقة ملاك صغيرين، بلا مداخيل، مجبرة على المغامرة باستثماراتها التي ينهبها الناهبون في ظل عدم الاستقرار والفقر أكثر فأكثر.

إذا كان عدد الملاك قد نقص في الجزائر فإن الأجور قد ارتفعت بطريقة مشهودة، إن قطعة الأرض التي كانت بحوزة الأهالي لمتكن تجني له من الربح أكثر مما يتقاضاه اليوم في ورشاتنا. إن شبكة الطرقات والسكك الحديدية، وكذلك ما تم تشييده هنا وهناك من المرافق العمومية هي ثروة ذات منفعة عامة لا شك أنها لولانا لما كان الأهالي ليحلمون بها.

ما الرأي السديد في كل هذا ؟

في الواقع، من الخطأ أن نهلل لسعادة محمد بن مبارك للرخاء الذي عمه، ومن الخطأ كذلك أن نصوره بكلمات مسمومة خبيثة على أنه يرزأ في أعظم شقاء.

لقد عاش الفلاح منذ القديم على الكسرة والماء، كسرة قمح، شعير أو ذرة –حسب المنطقة وحسب الفصل– ... كما يعيش على الحشائش، بسبب نقص تدبيره، حاله في ذلك كحال الصرصور الذي يداهم الشتاء في الحطابة المعروفة، أو بسبب الغلل الفقيرة أو المتضررة حالة الحقيقية هي أنه ما أن تأتي النسمات الباردة حتى يأتي الجوع، ولقد رأينا جليا - ومرارا- تلك النساء أشباه الميتات بالوجوه التي أفسدها الشقاء، وشحّبها الجوع، وهن منكبات بسيقانهن العارية على الأرض اليابسة على أمل اقتلاع بعض الجذور القابلة للطهي والأكل، بأي شكل من الأشكال ثم إن مسكن الفلاح هو "القربي" أو الخيمة القديمة، ذلك من قديم الزمان مساكن غير مريحة : برد قارس في الشتاء وحر قاتل في الصيف.

البرنوس الصوفي والقندورة الكتانية هما لباسه بامتياز، معرض لكل الأمراض والأوبئة التي يعرفها كلها، كثير منها سلبه بعض أبنائه وخلفّ له دموعا علمته المواجهة بصبر وسلوان، السل والسيفيليس لا يعرفانه أبدا، أو أنه هو الذي لا يطّلع على حاله، ولا ينتبه أصلا إلا أنه مصاب بهما، يكتفي في النهاية إذا ما سقط كجذع الشجرة متهيئا للموت –بترداد عبارته المرجعية

"مكتوب ربي"- تلك كانت وضعية الفلاح قبل 1830، وتلك هي وضعيته اليوم، مع اختلافات طفيفة.

أنقول أن الوضعية لم تتغير تماما ؟ لا طبعا لأن هنالك واقعا أكيدا هو أن الجزائر بصدد مرحلة رجاء غير مسبوق، ولا بد أن هذا الرجاء الذي هو حصيلة جهد المزارعين والتجار والصناعيين والموظفين، قد عاد على الفلاح بنفع ما، إلا أنه لم يستفيد استفادة غيره.

وهذا هو النظام العادي للأشياء، بما نصنع فرصة البعض لا يصنع بالضرورة فرحة البعض الآخر، الذي هو الفلاحون وهو أمر كنا قد أشرنا إليه في أكثر من موضع، والهدف الملح اليوم هو بلا ريب إعادة الاعتبار لهذا الفلاح الشيء الذي إن لم يتم أدى إلى التشكيك في الرخاء المذكور أعلاه.

إن برامج تحسين وضعيته لا غبار عليها عموما، وسيظهر هذا ساعة تطبيقها لا شك في ذلك.

هذا دور هيئات الاحتياط وصناديق التوفير التي يعمل هو، جزئيا، على تأكيد مواردها بشكل ما (مدخول اليوم يحاذي 25 مليون)، المبلغ محترم ويسمح بتحقيق الكثير إن لم تسقط مصيبة ما تأكل ذهب البلد.

إلا أنه لا مهرب من انتقاد هذه الهيئات لأنها من خلال التوزيع السيئ لأموالها، لا تقوم بواجبها المذكور أعلاه، إلا أن المؤشرات تبين بعد أفضل أهم الإصلاحات الواجب التعجيل بها كما قلنا مرارا فيما سبق هي أن يصبح المسؤول الوحيد عن تحديد قوائم المستفيدين من القروض والتعويضات هو رئيس البلدية وحده ؛ وإننا لندعو المسيرين والحكام أيضا إلى السعي حتى "الدواوير" لمعاينة ذوي الحاجة الحقيقيين، بهذا الشكل فقط يمكنه ضمان نزاهة العملية.

إن هذه الهيئات شيء هام جدا ولو ضمن صلاح عملها ونجاعتها وضمن توسيعها على نطاق محلي فإننا سنضمن تغيرا كاملا للأوضاع، وانتشارا للتضامن.

ولا بد من أن نتذكر دائما أن الفلاحين - بحكم ديانتهم أصلا- اناس مجبولون على التضامن. إضافة إلى كوننا مؤمنين أشد الإيمان بالمبادئ الاشتراكية التي لا نفتأ ندافع عنها، ونردد بناء على ذلك الكلام حول أهمية المكاتب الخيرية أيضا من الأعمال الهامة التي تسد حاجات الكثيرين ممن هم في عسر.

من أجل تحسين الوضعية المادية الفلاح أيضا يأتي إنشاء الثمانين عيادة بلدية، إن أطباء التعمير والمساعدين الطبيين يقومون

بعمل جدير بالحمد والثناء ولا يلتفت أحد إلى الأقاويل الجارحة والانتقادات السلبية التافهة التي تأتي لتحقير عمل هؤلاء ؛ وما ذلك إلا تجل صارخ للنفسيات المريضة وللخلفيات النفسية المرضية.

لقد استقبلت هذه العيادات عام 1911 حوالي 12000 مريضا من ضمنهم 2000 امرأة و1500 طفلا[1]. والفلاح يقصد هذه العيادات لأنه ليست بعيدة عن مسكنه، ولأنه يجد في المرضين المسلمين عزاءا أكيدا. إنها مؤسسة ممتازة جديرة بالتشجيع وحتى بصرف العلاوات والزيادات.

أخيرا، وجب ذكر كون المساعدات المقدمة للعجزة من أهم ما يحلي من همة الفلاح، تخيلوا النتائج التي كنا سنبلغها لو أننا صرفنا ما أضعناه على إنشاء المدارس (الأكواخ على رعاية المسنين والعجزة)!.

إن هذه نماذج من الإصلاحات الإيجابية التي تعمل بلا شك على تحسين الوضع المادي للفلاح، وهو الميدان الرئيسي الذي ينبغي أن تصرف فيه الأموال الجزائرية.

ومع ذلك فالوضع يظل مزريا إلى حد بعيد! ولاسيما وضع المرأة! إن المسكينة لا زالت أمة تستعبدها الأشغال الشاقة ولاسيما

1- H. LAMON: l'Algérie musulmane.

جلب الماء وجمع الحطب ؛ وهذه الأخيرة مهمة لا بد من التفكير جديا في إعفائها منها وأكاد أراها أكثر معاناة من الرجل نفسه من نظام "الخماسة" الذي يحرمها في كثير من الأحيان حتى من الإعانة القاعدية للزوج.

إنه نظام "الخماسة" هو الجرح الحقيقي للفلاح الجزائري إنه السبب الرئيسي لتعاسته (النظام الذي يجعل المزارع لا يعطي عماله سوى خمس الغلة).

إن هنالك وجها من وجوه الانتقاء يكفي وحده لتحكيم فكرة هذا النظام من أسسها ؛ في حين تتعقد أعمال الفلاحة من عام لآخر، نرى مدخول الخماس يتناقص من عام لآخر، وذلك بدلا من التزايد (أو على الأقل المحافظة على الوضع على ما هو عليه).

فالغلال تتزايد من عام لآخر بفضل الآلات والماكينات، والخماس لا يستفيد من هذا الوضع المتطور والسر يكمن في عقلية المزارع المتجبرة فهو، بتطور الأعمال يجد نفسه مجبرا على استدعاء عدد متزايد من الفلاحين في كل سنة في حين أن النصيب المحدد للقسمة (الخمس) يظل على حاله رغم تضاعف عدد المقسوم عليهم. الأمر المؤدي إلى تناقص حصة كل فلاح.

ولنحكم على الوضع بهذا المثال :

نحرف 80 إلى 100 هكتار من المرتفعات نحتاج إلى ثلاثة محاريث، قديما كانت المهمة تحتاج إلى الخماسين أما اليوم ومع تطور شكل العمل فنحتاج إلى جانب كل محراث إلى ثلاثة خماسين، والواقع أنه يوجد دائما 4 خماسين أي أن عدد العمال قد تضاعف، وبذلك سواء كانت سنة جيدة أو رديئة فالأرض حسنة التربة،يعطي الهكتار الواحد المحروث بالمحراث الفرنسي منها مردودا يقدر بـ 10 قناطير من القمح.

3 محاريث تعمل في 30 هكتار تعطي 900 قنطارا، 1/5 منها يعادل 180 قنطارا هي حصة الخماسين، هذا المقدار الذي كان يقسم قديما على 6 خماسين صار يقسم اليوم على 12 خماسا، حصة كل واحد لا تتجاوز 15 قنطارا، مدخولها (على اعتبار 25 فرنكا للقنطار) لا يتجاوز 375 فرنكا.

فإذا افترضنا أن القنطار الواحد يعطي 20 قنطارا - وذلك لا يحدث إلا في أحسن أحسن الأموال- فالمدخول لن يتجاوز -مع أفضل الفرضيات 750 فرنكا أي 60 فرنكا لكل شهر.

ما هذا ؟ من القالة حتى بني صاف، شعب برمته مجبر على العيش بهذا الشكل المزري ؟

أضف إلى ذلك أن عائلات الخماسين كلها كثيرة الأفراد، وهذا ليس من علامات الرخاء -كما أسلفنا- .

عائق آخر من عوائق نظام "الخماسة" يكمن في أن الفلاح لا يتقاضى ما يتقاضاه إلا في نهاية الموسم، فعندما يستخدمه مزارع ما لا يكون لديه مال يذكر لذا فهو يقترض كل شيء فيدفع إزاء كل ما يقتنيه أثمانا هي أضعاف الأثمان العادية (وهذه طبيعة القرض).

أما مقدم الأجر الذي يعطيه المزارع المستخدم للفلاح فهو يكاد لا يساوي شيئا، لهذا يجد نفسه مجبرا على الاستعانة بالطلق، إنه لمن الغرابة أن نجد لدى أهالينا الأذكياء تحريما قاطعا للاقتراض المتعارف عليه في المصاريف والتعاملات والذي فائدته 5% لكي نجدهم يتقبلون ببساطة قرضا آخر نسبته 100% ! ... القروض الأولى محرمة باسم الشريعة الإسلامية، أما الثانية فهي مهلكة للفلاح لأنه يقترض في مارس ما قيمته 40 فرنكا ليرد دينه في أغسطس وقد صار 80 فرنكا... ولهذا الأمر منطقه لدى الفقهاء والمشرعين، ولدى الفلاحين أيضا تباعا لذلك [1].

1- الأمر مشروط بكثير من الضوابط طبعا وليس بالشكل الذي نعرفه.

هنالك أيضا القرض الذي مادته مال صرف وفائدته سلعة، فكثيرا ما يقترض الفرح 20 فرنكا في الربيع مثلا على أن يصاحب رد الدين في الصيف كمية من القمح تعادل 10 فرنكات، وكأنها فائدة بـ 50% لمدة 3 أشهر.

هاتان العمليتان يشرحهما المشرع "سيدي خليل" ويفرد لهما فصلا كاملا، إنه لمن الغريب أن يحتوي التشريع الإسلامي المعروف برأفته الشديدة (خصوصا بالنظر إلى الفترة التي جاء فيها) عمليات مثل التي ذكرناها.

ثم إن الأمر قد ساء، لأن كل قانون معرض بالضرورة للتحريف.

لقد حدث أن حاولنا شرح محاسن الفوائد على القروض التي تتعامل بها البنوك وبينا أن ما يصاحب الديون في المعاملات المذكورة أعلاه يعادل مالا ومالا طائلا، إلا أن السعي خاب.

لا نقاش ! هكذا قال الأستاذ !

إن هذه المعاملات قصيرة المدى واسعة الأرباح قد تفشت وتجاوزت الأهالي المسلمين إلى المعمرين المسيحيين وخاصة اليهود الذين التفوا إلى الفائدة الكبرى الكامنة خلف هذا الإجراء

الإسلامي" فرضوا بالإسلام دينا للمعاملة وكلنا نعي ما خلف هذا التأسلم الجزئي" للمسيحيين واليهود من أضرار على المعوزين.

المدارس، المحاكم والمنابر كل من يفقه حرفا يمدح هذه المعاملات المهلكة ويختفي خلف الدين مبررا رأيه ولا أحد يلتفت صوب الحق، والواقع أن جل من يتحدث عن هذه المعاملات هو بصدد تحضير نفسه لمرحلة الاستفادة بدوره من أرباحها.

كيف يعبر، بعد هذا، أن تفسر الثروات الطائلة التي تشكلت بسرعة جنونية على عاتق الفلاحين ؟

أما الأهالي الذين يخضعون لهذه المعاملات فلا نملك إلا أن نعذرهم فالجوع مهلكة كما يقال، فإذا عجز بعد ذلك عن التسديد فلا غرابة فلي الأمر!

حدث ذات مرة أن أحد القضاة كان في مواجهة دعاوى قضائية لقروض غير مسددة، ورغم الكمية المذهلة من الوثائق المؤدية بالمقترضين إلى الهلاك إلا أنه قدر ألا يحكم بشيء في حق هؤلاء سوى بأداء مدخولهم المقبل من القمح وهو أجزاء صغيرة من أصل الدين كانت أحكامه مدوية إلى درجة أن المتعاملين بالربا ألغوا من وثائقهم مصطلح "الطلق" وعوضوه "بالقروض" فما كان إلا

أن حكم القاضي المسكين فيما بدر لاحقا من الدعاوي بما شاءه المقرضون على المقترضين.

هذا ينبئنها إلى حد ما بمدى خطورة هذه المعاملات وما علينا سوى معاينة العدد المهول من القضايا المثيلة التي تظهر كل خريف. لقد صار شهر سبتمبر الشهر المفضل لدى المحضرين القضائيين، المترجمين، كتاب الضبط والمحامين.

هذه هي أضرار نظام "الخماسة" والحال تزداد سوءا في فترات الأزمة، ففي السنوات الأخيرة أدت وفرة اليد العاملة إلى تدهور حال الفلاحين إلى درجة لا تطاق، لقد شهدنا حالات دفع فيها الفلاحون رشوة للمعمرين كي يدرجوهم في الخدمة.

هل يمكننا أن نحلم بأن تتحسن ميكانيزمات هذا النظام المهلك ذات يوم ؟

الأكيد أنه لا بد من تغييره وإصلاحه، الأكيد أيضا أن حركة الإصلاح لا بد أن توكل إلى أشخاص لا صلة لهم بالخواص الذين سيرون ذهاب النظام الذي يضمن لهم الثروات الطائلة فيعملون –آنذاك- بكل جهدهم كي تستمر الأوضاع على ما هي عليه.

لقد حدث مذ سنوات أن أنشأ أحد الأهالي المتنورين تعاونية هدفها محاربة فكرة رشوة التوظيف التي ذكرناها، ورغم ضيق دائرة التعاونية التي انضم إليها مجموعة من الفلاحين إلا أن الأمر هال المعمرين فقضوا عليه بأن كتب أحد المعمرين رسالة مجهولة تصف التعاونية بالرغبة في الثروة وتقدح في "الشاب التركي" الذي يسيرها، وما كان من المسير في إطار التهدئة التي هي دوره الرئيسي إلا أن نصح الشاب التركي الذي كان يعرفه جيدا بأن يحتفظ لنفسه بنواياه وأفكاره الحسنة.

إننا لا نلومه أبدا، إلا أننا نقر ونؤكد بأن الإدارة هي وحدها الكفيلة بالإتيان بإصلاحات جدية في هذا النظام الجائر، وستكون مناسبة جيدا لها كي تثبت مرة أخرى بأنها ليست سجينة مصالح ملاك الأراضي!

إننا نقولها كلمة حق لا لصالح الإدارة دون أن نكون من يبالون برضاها أو سخطها مفادها أننا ننظر صوب هذه الإصلاحات -متى ما أتت- بعين الرضا والاستحسان ونغتنم هذه الفرصة كي نشيد بمبادرة أتتها الإدارة بإنشائها لتكوين في زراعة الكروم، وهي مبادرة تدل على الرغبة في تطوير اليد العاملة للأهالي؛ إذ أن 60 قبائليا شابا بصدد التكوين حاليا، والنتائج المحصلة ممتازة

وسيكون من المفيد جدا تشجيع هجرة الأهالي صوب فرنسا، ففي ذلك دعم مادي ومعنوي معا.

منذ أشهر أنشأ أحد المسلمين مكتبا لتنظيم هجرة الأهالي وتدبير أحوالهم ووظائفهم في فرنسا، وهذا النوع من المبادرات من شأنه التخفيف من أضرار ظاهرة نظام الخماسة.

من جهة، سيعمل اندماج عمال الأهالي وسط الورشات والمصانع في المدن على تغيير الهيئات وتخليص أبناء ديننا من أحكامهم المسبقة، ثم إن معايشتهم للوضع الحضاري فيما وراء البحار سيجعلهم واعين بالعظمة الفرنسية وهو وعي سيسرب منهم إلى غيرهم عند عودتهم.

أما من وجهة النظر الاقتصادية فإن تواجد هؤلاء في ميدان العمل الفرنسي ومناقشتهم لليد العاملة الواردة من بلدان مثل ألمانيا، إسبانيا، إيطاليا وبلجيكا، سيسمح ببقاء جزء هام من الثروة الفرنسية على الأرض الفرنسية.

أما من ناحية أوضاعهم المادية، فالخير أظهر وأعمق، فالأجور مرتفعة في فرنسا أكثر مما هي عليه في الجزائر، القبائلي الذي يربح 6 فرنكات في توكوان أو في ليل يمكنه توفير نصفها لأهله في الجزائر.

ها هي ذي كلمات السيد هوغ لورو Hugues Leraux تقطر حماسا وبلاغة على ورق جريدة لوبوتي مارسييي Le petit marseillais :

"ثم أنهم (القبائل) يلحقون الخير بالجميع، إنها أموال طائلة تتهاطل على البلاد مع نهاية كل أسبوع على شكل طوابع التحويل، إلى درجة أن العمل تضاعف ضعفين كاملين، أكثر من مليون ونصف تم تحويلها خلال أشهر قليلة فقط صوب جبال جرجرة وغابة آكفادر وقرى سباعو، أين لم يكن للناس شغل سوى التفرج على الوقت يمضي فيما الكلاب تنبح انطلال الوهمية.

إن المعمرات الإسلامية أحسن حالا -حسب السيد ليال في جريدة الرشيدي- من باقي المعمرات المتموقعة في المدن الكبرى وعلى كل حال فإن النتيجة هي عمال وجنود لصالح فرنسا، ورخاء ونعمة لصالح الأهالي.. هذه هي الوصفة المثالية للهجرة المثلى".

قد تكون هذه الهجرة حلا لنظام الخماسة الجائر، إلا أننا نتساءل :أليس بإمكان الإدارة التي هي الراعي الرئيسي لرعاياها الأهالي أن تتدخل من أجل تنظيم عمل هذا النظام باقتراح حلول من قبيل تحديد عدد العمال على المحراث أو إجبار الملاك على تشغيل عمال مياومين (ذوي أجرة يومية) ؟

أليس بإمكان الإدارة إنشاء تعاونيات من خلال جمع شمل ملاك ومزارعين متجاورين لأجل إنشاء تعاونيات إنتاجية واستهلاكية في صلب أراضيهم الزراعية هدفها تسيير حال الخماس وارساء نظام "الخماسة" على قواعد غير التي هي عليها.

إن إصلاح هذا النظام ممكن بل إنه ضروري لقد أعلينا كل الأصوات الممكنة من أجل إظهار المدى الكبير للشرور الذي يختزنها هذا النظام، ولا زلنا نصرخ بكل الطرق بأن الادارة الفرنسية قادرة على تغيير هذه الحال، وستتمكن آنذاك مما لم يتحقق منذ قرون طويلة :تحرير الفلاح من أحماله القديمة.

أرادت أن تنال الإجلال وربما الخلود فعليها أن تعمل على الانتصار للطبقات الأكثر حرمانا هؤلاء الفلاحين الذين لا يملكون لا ذهب الأعيان الذين يمكنهم من الاستغناء عنها، ولا بلاغة النخبة التي يسمع صوتها دائما من به صمم.

إضافة إلى كونها الأكثر عددا والأكثر ضرورة للنماء والرخاء وقد أوضحت التجارب مرارا أننا لا نستطيع تسيير بلاد برمتها بالارتكاز على الأقلية.

ثم إننا نتساءل: ماذا جنينا من الامتيازات التي مكنا منها تلك البرجوازية الكسولة المغرورة ؟

هل أعطت هي هذه الشبيبة من الأهالي الذين درسوا على مقاعد المدارس الفرنسية والتي لا يمكن أن نغفل قيمتها رغم الانتقادات الموجهة لها ؟

لا، قطعا! هذا الجيل يعود فضل إنشائه إلى سواعد الفلاحين العاملين بصمت وجد.

الخلل عندنا مثلها في فرنسا في القرون الوسطى إذ لا يمكننا الاعتماد على أبناء الطبقة البورجوازية ليوصلوا إلى أعماق الجبال والقرى القبائلية الأفكار التنويرية والأحكام المستحسنة للتقدم.

وسط أبناء الفلاحين فقط يمكننا أن نجد الأفراد الذين يسهل إدماجهم فورا، الشعب وحده يمكنه الارتماء بين أحضان أمه بالتبني خلوا من كل أفكار مسبقة. هو وحده يمكنه أن يمنح أبناءه يدا حنونا مستقيمة، لأن الأمر لا يخلف عنه شجنا على ماض ولى ولا على حاضر ما، إنه عاجز عن تقنيع أفكاره ومشاعره، إنه لا يكره في غالب اليوم ما كان يكرهه بالأمس، فالأمة التي أعطته التربية والتعليم، والتي تعمل على حمايته وحماية أهله ورعاية رزقه وحقوقه هي أمة سيرتمي بيسر بين أحضانها.

لن يفعل الشعب ذلك بالحرارة المرجوة على الجبهة الفرنسية، إنه شعب لا يستطيع فعل ذلك لأسباب تاريخية، إلا أنه سيعمل شيئا فشيئا على الانتماء إلى العائلة الفرنسية الحاضنة له.

آنذاك، ستتحرك البورجوازية المهانة ستفهم أن هنالك بناء لم تشارك هي في إنشائه وفوتت الفرصة على نفسها للزيادة في هذا التشييد، ولا شك في أنها ستتهافت صوب ذلك البناء لاستدراك ما أمكن وتتمنى أن تجد البناء بأبواب معلقة مكتوب عليها : "ممنوع الدخول".

سنتناول فيما يلي أمراض هذه الطبقة تنقلنا لمقاطع مما كتبناه –وأسال كثيرا من الحبر وحرك كثيرا من المشاعر- على صفحات "لاديباش دي كونستانتين La Dépêche de Constantine".

الفصل السادس

أمام أسوار التعصب

سيصدر بعد أيام كتاب لا بد أنه يحمل إنارة جيدة من خلال وثائقه لأوضاع المجتمع المسلم في الجزائر عموما، وفي قسنطينة على وجه الخصوص.

لا شك أنه سيروق الجميع، سواء أكانوا على ضفة الأهالي وكانوا من مؤيدي الخرافات والأحكام المسبقة، أو كانوا على الضفة الأخرى من الحاملين بتغيير الروح المسلمة، كلهم سيقرؤون بشغف.

سيحمل هذا الكتاب بين طياته ضربة كبيرة -كما نأمل- للخرافات التي جاءت لتعقد معتقداتنا الدينية التي هي في الأصل بسيطة سيساهم هذا الميسم المشتعل متى ما وضع على إحدى أفدح جروحنا الاجتماعية -التعصب- في الإسراع بالجموع صوب التحرر الذي تعمل عليه فرنسا على قدم وساق في شمال إفريقيا.

كتاب هادئ رزين، لا عنيف ولا عدواني، صادر عن ذهن حصين لرجل مجرب، طريقته هي التمهيد لأفكاره بسلاح الإقناع.

لا أحد سيجرؤ على إلحاق تهمة الجهل ولا التحيز بمؤلف هذا الكتاب: السيد مجاوي عبد القادر لم يحظى به من تقدير لدى المسلمين ولدى الأوروبيين، ولإحاطته الجيدة بشؤون الأهالي، وكذلك بفضل شعبيته في البلاد التي أعطاها 40 سنة من حياته معلما ملاحظ من خيرة الملاحظين، الأستاذ الفصيح في المدرسة العليا للجزائر العاصمة معروف في الدوائر المثقفة بفضل أعماله السابقة المنبئة عن فهم سيكولوجي عميق وتفكير دقيق رصين والكتاب الذي هو بصدد الانتهاء منه سيمدح كثيرا لصراحته وتوثيقه الجاد. وها هي ذي حيثيات الكتاب.

في شهر أفريل من عام 1910، ظهر في العاصمة على صفحات النجم الإفريقي التي يشرف عليها السيد المحترم كحول، مقال فيه نقد وتهكم لاذعان للأحكام المسبقة وللأخطاء الجسيمة للعالم الإسلامي، وبما أن كاتب المقال كان السيد بن موهوب فنزل وبال من السخريات على أهالي منطقة قسنطينة والواقع أن الشاعر لم يفعل سوى إعادة ما لقيصر لقيصر، ولا أحد سيكتشف العجلة إذ

قال أن ظلمات الجهل أشد حلكة في قسنطينة منها في مواضع أخرى.

إنه لقدر غريب أن يكون هذا هو مصير المدنية التي شهدت مولد أبي البركات بن باديس، عبد الكريم بلفقون، الشيخ الحفصي، عبد القادر الراشدي وجمهرة أخرى من أهل العلم.

كان لذلك النقد إذن وقع معين وكان أن جرح تلك الثلة التي تتخذ من صفة "عربي" و"مدني" لافتة امتياز وعلامة تفوق، تلك البرجوازية المغرورة المنتفخة كالديكة والتي يملأ أهلها ساحاتنا العمومية ومما تسمى مدينتنا.

وليس الأمر بالجلل في الواقع لأن الغضبة غضبة طبقة تافهة خالية من كل أهمية، كل ما حدث هو هزة أصابت خمول هؤلاء الكسالى وعدم إحساسهم وحسنا فعل من فعل ! .

معروف لدى الجميع أن البربر هم من يأهل هذه المنطقة من شمال إفريقيا منذ أقدم الأزمان ؛ لقد لاحظ ابن خلدون في "المقدمة" قلة أعداد العرب الأصليين هنا وذلك حتى في المدن الناطقة بلغة الرسول - ص- .

إننا نجهل أصل سكان هذه البقعة بالتحديد -وذلك رغم الأعمال الجادة لمباحث الأستاذ كولينيو في تونس- ... ما نعلم

يقينا هو أن فئات متنوعة من المهاجرين قد مروا بهذه الأرض تاركين ميراثهم ولغتهم، ولهذا فإننا نستغرب وجود لقب يهودي أو فينيقي في "الأوراس" أو في جبال "بابور"، إلا أن هذا لا يعني بالضرورة وجود وحدة معينة في الأصول بين هؤلاء جميعا.

اليقين الآخر هو أن العرب قد أدخلوا الإسلام إلى هذه المنطقة لا ريب في ذلك إلا أن القرون الأخيرة الصامتة تجعلنا نتساءل عن النزعات الظلامية والفكر الغيبي، ما أصوله وما خلفيات، أم أنه هو أيضا ركام من الأشتات؟

ينقل الأستاذ مجاوي بعض صور العلاج من المس قائلا:

"... وإنك أيها المشاهد المنطقي العاقل ستتفاجأ لا شك وأنت ترى ما لم تره عينك من قبل!

أفراد من الجان من البلاد وآخرون من النامة، وبنت النبلاء يسكنها ساكن من نبلاء العالم الآخر، والنبيلة إذا شفيت ممن تتقاسم مع زوجها مفاتنها النبيلة تقيم حفلا صاخبا... عرس كبير بمناسبة خروج ضيف الشرف النبيل الذي ستتوسله مرة أخيرة ألا يرونها ثانية! مشاهد في قمة الغرابة، وكلام أغرب من المشاهد (إلا أنني أطمئن المشاهد غير المتعود على كل هذا أنه لا خوف على

عقل عاقل ولا على منطق صاحب المنطق رغم أن ما يراه مقرف مقزز مثير لكل من له أدنى درجات الحياء والكرامة!).

"سيأتيك مراسيل الدهشة ويأخذونك على غفلة من نباهتك إلى أراضي الاستغراب النائية، وستجد نفسك بلا ريب في سؤال وحيرة: هل أنا في منام أم أنني صاح؟

"أدهش ما سيدهشك هو تلك الشاة البيضاء الناصعة، التي تلاعب بها القدر فأبعدتها عن ذويها ورمت بها وسط عالم السحرة والمشعودين هذا... تحيط دائرة دائرة من النساء، "الشوافات" ومساعداتهن، وبعض المريضات، كلهن بألبسة باهرة وحلي فاخرة.

وتقف على الشاة المسكينة التي سيتم حرقها فإبعاد الروح الشريرة التي أصابت إحدى الحوريات البريئات في الفجر الناصع لحياتها الغضة. تقف إذن بلباس ناصع البياض، وبزينة مثيرة وحلي مدهشة، تمسك بيد سكين أو سيف، وباليد الأخرى تشكيلة من الأشكال الغريبة والأدوات والأحجار العجيبة التي تحركها بحركات غريبة وتضرب بها صدرها ثم خصرها وجانبيها وكل ما يمكنها بلوغه من أعضاء جسمها.

الشاة نفسها مزينة محلاّة بعناية فائقة، ذهب، فضة، ألوان، أحجار كريمة، تقاطعات براقة على الوجه وبين العيون، خيوط

براقة، تلج، أطواق ملونة... وتتسع الدائرة المذكورة بغتة ليعم الصمت قاعة العلاج... (لأن الأمر أمر علاج في النهاية!) فقط وصيفتان مقربتان تظلان قرب المسكونة يمسكان بذراعيها فيما جسمها يتخلل جيئة وذهابا، يمينا وشمالا متخذا بين الحين والآخر أغرب وأدنس الوضعيات والأشكال والتشنجات الممكنة.

ثم تصيب الحرارة المشهد كله فيعلو صوت الطبلات الصغيرة وسط الهرج والمرج المتصاعدين على جنبات الولولات الصاعقة، والحرارة والأبخرة تتصاعد من الجمع المنفعل المتفاعل حدّ خنقك وتعميتك.

"ويدوم المشهد إلى أن تسقط "المسكونة" أرضا منتشية ذاهبا رشدها وسط البخور، وتخلف آنذاك الخروف لأولئك المنتظرات الواقفات الكثيرات واللواتي ما أن يتعبن حتى يشرعن في "التضحية" تجر الشاة إلى مكان الذبح وسط الثغاء والشكوى الحيوانية "بلحمر" المرعب حتى اسمه، أما "الله" العلي القدير فلا يجرؤ أحد على ذكر اسمه، وعند مذبح القرابين تمد الحورية المسكونة المسكينة يديها مرتجفة لالتقاط الدم المقدم ثم شربه وهو ما تفعله الحاضرات جميعا الواحدة تلو الأخرى، حتى تنالهن

قدسية الدم الآتي من ذبيحة ذكر عليها اسم الجن لا اسم "الله" العلي القدير".

"ثم تشرع الأصوات كلها بغتة في التناقص، هل هو هذا المهدي الغريب الذي فعل مفعوله؟ لا، إنهن المغنيات اللواتي ينادين للعشاء، طاولة فخمة فاخرة عليها ما لذ وطاب من مختلف الأطعمة. هنا، على هذه الطاولة سيملأ الجن ونفره معداتهم الفارغة، بقية الطقس المحترمة بعناية كبيرة هي: الأكل، الحديث وتبادل الانطباعات حول ما ألمّ بهن من مشاعر أثناء الرقصة، في هذه الأثناء يقرر "الجن" إن كان سيرحل أم لا!!...".

... وتظل هنا في حضرة امرأة مريضة، يضيف مجاوي ملك الجان هذا الذي يتنزّل من الأعالي والذي لا وجود له إلا في أذهان شعب متخلف تعمره الأحكام المسبقة، هل هو موجود؟ هذا الملك الذي أتانا من عالم الأخطاء والجهل هل سيذهب لسكنى آخرين؟ إطلاقا، في العام الموالي وفي الوقت نفسه سيعود لسكنى جسم التي استقبلته أول مرة بكرم إنها العادة!

وهذه هي عادة تختص بها طبقة معينة من أبناء الأكابر القسنطينيين، أما موظف مثلي ومثلك، أو فلاح أو أي شخص آخر،

فلا جدارة له كي يحسن استقبال كائن عالي الشأن بتلك الطريقة الرفيعة.

فإن استطعنا أن نفعل فلا بد أننا سنصرف زوجاتنا وأخواتنا عن الأمر ليظل لأهله أليس كذلك ؟

ما هذه المراسيم التافهة ؟ لا شيء سوى عادة شاذة اخترعتها وتحافظ عليها نساء شاذات يعملن -كما يقول مجاوي عن صدق- على خلاء بيوت عوائل كثيرة، إن هنالك الكثير من الرجال يسيلون دمهم لإشباع الرغبات الشاذة لنسائهم.

"هذه العادات مصائب فعلا" ونضيف إلى قول العالم الجليل بأنها مصائب كبيرة إلى حد العجز عن معالجتها لكثرة ما يواجهنا من العوائق في مسيرة هذا الصراع...

ها هو نموذج من العوائق، ولنتأمله إنه دال على الكثير تعرفون جمعية صالح باي، وتعرفون هدفها العلمي الثقافي الأدبي التكويني التربوي وحتى العملي (التكوين المهني) والتضامني... هدف مكمل -باختصار شديد- للمهام التي تضطلع بها القوات العمومية. وهي أهداف لا تتنافى تماما مع مقاصد الشريعة الإسلامية، بل إنها متماشية معها إلى درجة أنه لا أحد يخشى ولو قليلا من وجود شيء يخدش أية حساسية لدى أي مسلم كان.

هل تعتقدون أن البورجوازية المحلية قد شجعت الجمعية ؟ لا، أبدا بالعكس فقد حاربوها بنشاط وشدة وحقد ونفاق لا مثيل لهم، ولولا علوّ همة القائمين عليها وإراداتهم القوية، وعلى رأسهم السيدان آريب وبن العابد لكان المشروع قد أجهض في المهد.

إننا لا نفتأ نذكر تلك المحاضرات المجيدة الجليلة والساعات السعيدة أيام كاد بن موهوب يمثل خير تمثيل وعي الطبقة المثقفة ! نتساءل الآن فعلا من أين تأتي الثورة ؟ من يطلق صوت اللعنة ؟ من المسؤول عن تشويه النصوص الموجودة في la dépêche ؟... أليسوا أولئك المتطرفين ومرضى النفوس الذين رأوا كرامتهم ممسوسة، والمساعدون في مهمتهم القذرة يتصف بزينة من "الطلبة" بلا ذمة ولا ضمير ! أما أصل الفتنة فبسيط : أثناء الاجتماع الأول تم خدش التقاليد والتعصب... وكان ذلك كإعلان الحرب.

وهناك سبب آخر يكمن في أن هذه الطبقة البورجوازية المتعودة على السلام الحار وتحية الإجلال، والتي تتخذ من الكسل وثقل الهمة علامة فائزة ونبلا أكيدا، لم تع كيف يمكن لحركة التجديد والإنعاش أن تكون موكولة لجماعة ليسوا من "أولاد البلاد"...

وسنتعرض لاحقا لهذا المصطلح وما يخفيه، فمعناه المباشر الشائع يخفي كثيرا من المعاني التحتية المضمنة.

أما فيما يخص جمعية صالح باي، فهي عاكفة –كما يعرف القريب والبعيد– على التقريب بين العنصرين اللذين أصبحا – بمشيئة العلي القدير– يسأهلان هذه البقعة من الأرض، وربما يكفي الجاحدين حجة على نبل المهمة أن السيد حاكم مدينة قسنطينة قد ترأس الجمعية شرفيا.

أوردنا هذا المثال لنبين مدى قوة عمل هذا التعصب على تثبيط التغير الاجتماعي في هذه البلاد وهو تثبيط لا يأتي من بسطاء القوم –ولن تتحرج في الاعتراف بذلك –بل من أكابرهم الحريصين– وفي ظل النظام الجمهوري الذي لا يودونه ولا يعترفون به، على مكاسب درّت عليهم الكثير أيام الحكم الفوضوي السائد في الفترة التركية حينما يطالب هؤلاء بالمحافظة على التقاليد "الحميدة" ويعلنون "لا مساس بالتقاليد" عليها ألا تنخدع فتظنهم صادقين حريصين على المحافظة على النظام وعلى السير الحسن للأمور.. إن ما يؤرقهم هو مصالحهم الشخصية هل تعتقدون فعلا أن المشرفين على "المدارس" وحتى على برامج تعليم الأهالي في المدارس الفرنسية، وهم أناس يؤرقهم مصلحة "الإسلام" ؟ كم

سيكون كبيرا تهافت من يعتقد بأن الإسلام هو المسؤول عن خزعبلات يهدر بها لسان شخص تملكه الجن تعرفون مدى جهل الكتلة، ومدى سهولة استغلال سذاجتها إذ يكفي أن تعلن أنك تتحدث إليهم باسم الإيمان، ولن أحيد عن الحق إذ قلت أن ثورة 70- 71 ليست سوى فعل أحد الغاضبين الذين أجادوا استغلال الخطاب الديني، وهذا الصنف من الأشخاص لا يتعامل بطريقة مغايرة - بلا ريب– مع أولئك الذين يريدون تخليص الأهالي من غيبياته.

ما أن تبتغي المساس بالتقاليد البالية حتى تقوم هذه الكتلة كالعول في وجهك مستعنية بالدين كي تثني كل طاقة مهما كان حجمها، وكي تقهر عزيمة مهما كان ثباتها، وتعيق كل مبادرة مهما كان نبلها.

بربكم، قولوا لي، أكان من الممكن لمن قال: "إعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا، واعمل لآخراك كأنك تموت غدا" أن يكون معلما للخنوع والتعصب اللذين أبهى حسناتنا اليوم؟!

هذا الرجل العظيم الذي يحظى بإجلال العالم كله، ألم يقم بإدانة الغيبيات والخرافات والطير منذ 14 قرنا ؟ باسم من إذن تتحدث هؤلاء المحافظون العمي ؟ هؤلاء الحراس أمام ضريح عادات

تزيدهم سوءا على خطيئة ؟ إننا لا نرفض التقاليد التي توحدنا في السراء والضراء، بل إننا نستحسنها في إطار ما هي حسنة. فالعون الذي يجده من قبل أبناء جلدته ذلك الذي حلته مصيبة أو وفاة أو ذلك الذي يستعد لتزويج أبنه، هو شيء حميد لا نستطيع إلا أن نثني عليه، ما لا نأسف عليه بالمقابل هو أننا دوما نتخلى عن العادات والتقاليد الحسنة الحميدة لصالح الخرافات والخزعبلات والجهل، وهذه الأخيرة صارت أكثر بكثير من تلك المحمودة، وهذه هي نفسها التي جاء السيد الكريم لمحاربتها.

إننا نعلم عسر اجتثاب فيروس يتحكم من قرون طويلة في مجتمع آيل إلى الهاوية ونعلم علم اليقين أن الزمن وحده كفيل بتثبيت التغييرات التي نحن بصدد الدعوة لها. ولكن ماذا يفعل إخوتنا لعلاج الشر الذي فينا ؟ ماذا يفعلون في قرن التطور والنور هذا ؟ ينامون هانئين هادئين مطمئنين !

أثناء تلك الرحلة العجيبة التي قادنا أثناءها السيد مجاوي في دروب السحر والشعوذة كان هنالك رجل يطل من وراء الباب وعبر الفتحات الصغيرة على استعراض الرقص والجنون الذي قامت به زوجته، إننا نطالب هذا الزوج المغلوب على أمره أن يأخذ زوجته إلى المسرح البلدي أو إلى قاعة الأوبرا بدلا من أخذها حيث كانت.

لا، إننا نكتفي بأن نطالبه بالنزر القليل من العقل والمنطق، هذا الاحتفال السنوي الذي يقمنه كل سنة، وهذه الأوراق المالية التي تصرف في شرف ملك الجن أو ملك بروسيا، لماذا لا تصرف على تربية الأولاد أو على رحلة إلى مختلف مناطق بلاده التي لا يعرفها جيدا ؟

هذا الذهب المبذر هباءً ألا يمكن أن يصرف في سياقات أخرى أكثر إفادة للفرد والجماعة وأكثر عودة بالخير على المجتمع؟ هؤلاء المتسولون الضعفاء الذين لا أمل لهم سوى منحة المتصدقين وهؤلاء الأطفال المنطلقون يملؤهم الفرح صوب المدارس بالشوارع بأقدام حافية ورؤوس عارية ألا يمكن أن يلقوا العون لدى إخوانهم الذين يذهبون ليرموا قطعهم الثمينة قربانا لسلاحف سيدي مسيدا.

تكلموا تكلموا يا سادتي أبناء العائلات الكبرى، حديثنا إليكم، ولا رغبة لنا في جرح مشاعركم، رغبتنا كل رغبتنا مصدرها –لو تعلمون ولو تصدقون– هو حبنا لهذا الصخرة القديمة التي رعت سنوات طفولتنا. لأننا نتصرف بهذا الشكل لحرصنا عليكم حتى وإن كان ثمن هذا الحرص وهذه المحبة هو قتلكم إيانا مع أول زيارة نقوم بها صوبكم.

هدفنا هذا سيشرع في التحقق حينما تتمكن من جرح مشاعركم ومشاعر الشابات رأسا، والشابات المغربيات خاصة – لأن الشابة الأوروبية يقظة بالقدر الكافي- ونحن لا نجهل إطلاقا كون الحقيقة صارمة قاسية إلا أن الخلف الصالح لسلف صالح لا بد أن يقدر على مواجهة قساوتها ؛ ثم أتاهنا لتعريتها سواء أراقكم الأمر أم لم يرقكم.

إنكم تكرهون العمل هذا الشرط اللازم لاستمرار الحياة، هذا الأمر الضروري القاعدي لكل كائن حي تكرهون النشاط الذي يجعل الحياة نقية نبيلة وخصبة، هي بالنسبة إليكم عقوبة تكرهون ربح قوت يومكم بعرقكم، إنكم إذن أعداء الجهد، والجهد شرط الحضارة، إنكم أنانيون تأخذون دون بذل، مع أنكم الأمة التي خطبها كتابها قائلا : "فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض"...

لقد حولتم هذه الديانة التي كانت عنوان الصلاح والفلاح القوة إلى ممارسات للموت والتخلف والظلامية، وذلك بواسطة تراخيكم وسلبيتكم، احتاروا بين الحياة والموت، لا ثالث بين الإثنين، والأمر اليوم –إن كنتم تجهلون- حرب، حرب صامتة هادئة لا بارود ولا مدافع فيها، بل فيها الملايين.

إن كنتم ترفضون أن تصيروا أقوياء فإن عجلة التطور ستفرمكم فرما، لا لأنكم مسلمون –فالحرب الاقتصادية لا تفرق بين الملل والنحل- بل لأنكم غير جديرين بالحياة، فإن كانت هذه هي الحال التي تروقكم فسارعوا رجاءً بالاختفاء والانقراض ولننته من أمر "أولاد لبلاد".

دعوني أولا أقدمكم للجمهور.

اسمكم حسب القاموس هو "أبناء المدينة" أي الذين يسكنون المدينة...

وهي تسمية بعيدة عن الواقع، لأن من يطلع على عقلية البورجوازية القسنطينية سيجد نفسه أمام زمرة محدودة من الناس الذين يسمح لهم باحتكار هذه التسمية زمرة محدودة في مجموعة من العائلات، أما بقية الناس فهم عزاة "شاوية" أو "قبائل".

وقد رأينا الحرب الضروس التي شبت مرارا بسبب شعور البعض بالحيف بسبب هذا التقسيم... وكثيرون هم الذين طالبوا بتصحيح الأوضاع من أجل نيل هذا الشرف، فتم مرارا الرجوع إلى البحث في الأسباب "موجب الشجرة" (حسب المصطلح الشائع ؛ أي الحكم بموجب شجرة الأنساب) كما أن هنالك من عاد للحفر في تاريخ ابن خلدون لتتبع أثر العائلة وتحركاتها.

باختصار، وبحكم كون الخانات كلها ملأنة ، والفراغات كلها مشغولة، فقد رفضت البورجوازية الحقيقية –على ما يزعمون– تلك التي انبجست من "المرمر" حسب الصورة التي يحبون تسويقها كل المترشحين.

وبما أن المشكل دون حل إلى الآن، فإن طمعنا لن يتجاوز نقطة محاولة المصالحة الهادئة بين هذين الطرفين المتعادين، وسنكتفي فيما يلي برسم صورة تقريبية لهذا "ولد البلاد"، ثم أننا نعد كل من يطمع في تعليق هذه التسمية ممن لاحظ لهم بحكم النسب، أن نسميه كذلك ولينم هانئا من جهتنا نحن، الذين لا نطلب أصلا الدخول في هذا السباق.

"ولد البلاد" ليس فلاح "شطابة" أو "كركرة" الذي يضع برنوسا هو قطع متآلفة و"القاعة" بيد والعصا بأخرى، والذي يهرب ذات برد شتاء من دواره إلى المدينة حيث تدق باب مشغل ماء ثم يستقر هنالك ليتخذ له بعد كدّ وعناء وجلد وأصناف من الحرمان، مأوى في المدينة.

ليس "ولد البلاد" طالبا بال "مدرسة" يقطن بعيدا عن الدفء الأمومي، وبعيدا عن أحضان العائلة، والذي يأكل ويلبس ويقضي جميع حاجياته بأقل من 25 قرشا (دورو) يوميا ! ولا هو بائع

الفطائر ذاك الذي يعميه طوال اليوم دخان ينبعث من فرن بدائي لكي يعود آخر اليوم إلى بيته بوفير النقود، ولا هو ذلك الفتى الوسخ الذي يملأ الشوارع بصراخه المستمر "سيري مسيو" (هل تلمع الحذاء يا سيدي؟) والذي ينام ليلا، سواء أباردا كان الجو أم حارا أرضا بعد أن يكون قد أجاد إخفاء القروش السوداء التي ربما ذات يوم ستسمح له باستعادة قطعة الأرض التي استولت عليها الدولة بقانون الحجز، "ولد البلاد" ليس الطبيب الذي تعرفونه جيدا، والذي يذهب صباح كل يوم بقامته الجميلة وهيئته الجليلة صوب المرضى والمحتاجين يفيدهم بعلمه وبعلامات تكريسه نفسه للآخرين، والممرض الذي تجده بهيئة مماثلة في مهمة مماثلة يملؤه الجد والنشاط والاستماتة في خدمة الجميع، أهو من "أولاد البلاد" ؟ لا، أبدا، وذلك المحامي الموهوب، ذو الوجه اللطيف، والمظهر الضاحك والنظرة الصريحة، والقلب الأمين، ذلك المدافع الشرس عن الأرملة واليتيم المظلومين، أليس منهم ؟ لا... أولاد البلاد فئة أخرى.

هؤلاء الرجال الثلاثة ذووا المشية المهيبة والبرانيس الأنيقة، ألا ينتمون إلى الفئة المذكورة ؟ أبدا، كل من ترونهم، سواء الأنيق والرث ليسوا "أولاد البلاد".

ولد البلاد هو ذلك الشاب ذو الوجنتين الورديتين الذي تراه يخرج من الحي العربي حوالي الساعة الحادية عشرة صباحا، ساعة الاستيقاظ من النوم، أو ذلك المتأنق الوسيم الذي يطيل النظر صوب السماء، قبل أن يطلق خطوات بطيئة صوب الحديقة جيئة وذهابا، ثم يتخذ مقعدا لبرهة من الزمان ينظر ذات اليمين وذات الشمال يحدق في كل شيء، ثم ينهض يتثاءب بجلبة وينصرف بالحماس نفسه والعزيمة نفسها -وياله من حماس ثم يا لها من عزيمة !- ليندرع شوارع سان جون أو رودي فرونس.

هنالك، زاوية ما من حانة ما، بعيدا عن النظرات المتهمة، تجده يطلب من النادل شرابه المفضل : الأبسنت !

في المساء السيناريو نفسه، مع التمهيد الجيد بنوم القيلولة وفي الليل، الأمر نفسه والموعد في الجمعية، هل تعرفون ما الجمعية ؟ إنها في العموم قاعة كبيرة موقعها مبنى يسمى "دار الزبنطوط" (أو بيت العزاب)، تنتشر فيها زراب ملونة تتوسطها موائد عليها مزهريات بشتى الزهور وشتى الروائح، وعليها أيضا مسبح بهيج اللون تعلوه حركات الأسماك الملونة البطيئة الشجية.

يجتمع أعضاء الجمعية كل مساء وسط عزف القيثارة، ولعب الأوراق، والتهام مختلف الحلويات المعسلة، إضافة إلى تدخين

الحشيش وحتى الأفيون، فيما إحدى الحوريات مكحلة العينين والتي هي عاهرة يهودية في الغالب، ترقص وتصب كؤوسا مسمومة، وفي هذه الأثناء تبكي الأمهات والزوجات فيما ينتظرن هؤلاء المتجولين المتأخرين.

أما لباس هؤلاء المتكبرين المسلمين فهو فاخر ومعقد برنوسان حريريان بأطراف ملقاة على الكتفين، شريط حريري أصفر يحيط بكثير من العناية بالخصر، وأحيانا تضاف إلى الحلة صدرية قصيرة (غليلة) تمسكها مماسك، وتزينها توشيات رائعة، ويظهر تحتها الحزام الملون ثم يأتي سروالان وثلاثة لإعطاء مرتديها انتفاخا جديرا بالطبقة.

إذا ذهبت إلى مصلحة البريد ورأيت أحد المرتدين لهذه الحلة واقفا محتارا ينظر صوبك نظرة تردد، فاعلم أن صاحبك من أولاد البلاد لأنهم عاجزون تماما عن تحرير أبسط طلب أو رسالة إدارية، أليس هذا الأمر مؤسفا، أليس عائبا ومشينا ؟

تحضرني هنا يا سادتي من أبناء عقيدتي التعساء تلك الحادثة في المدرسة التي أشرف "الرومي" على بنائها، حاولي سنة 1909، أثناء حفل ما، أين ألقى إثنان من تلاميذ جمعية صالح باي تحت

تلك الفئة الملونة، كلفتهم القاسية التي تعريكم والتي لا أتردد في تذكيركم بها ونقلها حرفيا اليوم مثلما قد فعلت من قبل:

سيكون مخجلا لكم أيها الآباء المحبوبون، أن ترعوا ثرواتكم وتهملونا نحن أبناءكم وأسباب ثرائكم، نحن الأغلى من كل الثروات، لا تعلمون أنكم تقتلوننا بأيديكم بتركنا في ظلمات الجهل؟ يا له من أمر غريب! كيف تزينون بيوتكم وتفسدون أولئك الذين سيأهلونها من بعدكم بواسطة لا مبالاتكم وسوء تربيتكم؟

هلا تأملتم هذا الخطاب الصادر عن طفل في الثانية عشرة؟ هلا نظرتم جيدا في ثناياه وفي أبعاده؟ لا، اكتفيتم بالتصفيق لمشهد طفلين يبتسمان، ضحكتم بأعلى الصوت، وصفقتم لظنكم أن الكلام مرحا ما وأنه لسلوك يشبه سلوك أولاد البلاد الذين يرون القيامة قائمة بعد حين دائما فلا فائدة من العمل إذن، الا ترددون دائما مع رجالكم الصالحين: "إننا في هذا القرن ونهاية العالم موشكة، ألم ترددوا مع سيدي ما نعرف" سينتهي العالم وتقوم القيامة يوم أن تصبح الأخبار تسري عبر الجبال"... وما نحن أولاد ونحن شهود على اختراع وانتشار التيلغراف نقول علنا:

"الحقيقة معنا وليست مع المرابطين والدجالين والعالم، العالم الحقيقي لم يبدأ إلا الآن!"

إن السيد مجاوي إذ يكتب لأجلكم لا رغبة له سوى تنويركم إنه لا يدعوكم إلى ترك ألبستكم التقليدية وهجر مساجدكم، إنه يعلم علم اليقين بأن الفرنسية المهوسة لا طائل من ورائها، وإنه لا يمكن اختراع مجتمع جديد في عام واحد فحسب، ما يريده أيسر من ذلك: فتح العيون جيدا، الثانوية على بعد أمتار منكم، والمدرسة تتوسط أحياءكم والمال في جيوبكم، إن الغدر الذي تقروه للقروي غير مقبول عندكم فحاجته هو إلى الخبز لأولاده تفوق بكثير حاجته إلى الكتب.

إنكم أرسطقراطية، وتملكون السلاح الأقوى: المال، لا تتعاونوا إذن على ما هو حقير كالعادات البالية، والتقاليد الموروثة... كل ذلك من صنع الإنسان وكل ما يصنعه الإنسان فيه الطيب وفيه الخبيث، فابعدوا عنكم إذن ما يدرجكم في مدارج الحيوانات لأن هنالك فيما وراء اللذة القاعدية، والنزوة العابرة شيئا هاما الكرامة قرون طويلة من الانحطاط... كفى!

ها نحن في نهاية مطافنا مع كتاب رأيناه هاما على أكثر من صعيد فإن كنا في الإطار الضيق لجريدتنا قد ألقينا أحكاما قاسية على طبقة معينة من مجتمعنا فإننا قد رأينا للأمر فائدة، وإننا لنصر في هذا المقام على أننا ونحن ننتقد ببعض الشدة هذا المجتمع في هذه المدينة التي هي مدينتنا أكثر من أية مدينة أخرى، لا نفعل ذلك إلا لارتباطنا بهذا الشعب وبأهل هذه البقعة المحببة إلى القلب.

إن في نقد بن موهوب وهجاء مجاوي أكثر وأفدح وأقصى مما أوردناه بكثير، وقد فضلنا السكوت عن كثير من الأشياء على الأقل في اللحظة الراهنة، الأكيد أننا لم نخترع شيئا بل اكتفينا بالبحث في تفاصيل ظاهرة خطيرة لا بد أنها بحاجة إلى دراسة أكثر جدية وتعمقا.

السيدة س...، سيدة شابة وطيبة يقظة الذهن خفيفة الروح، كانت تقول في ثنايا بعض الحديث : "إن إدماج الأهالي والمسلمين عمل يطول، فلا بد من ترك الفواكه تنضج الوقت اللازم".

هذا صحيح، إلا أننا لن نتوانى عن دعوت أبناء ديننا صوب تعقل أكبر لأن هنالك "تقاليد لا بد من زوالها رغم رغبة الراغبين في بقائها، وهنالك أفكار منحطة لا بد من محاربتها بشراسة.

إن سياسة "المحافظة التامة على كل ميراث العرب الفكري والسلوكي" وأفكار ذلك المشبوه الذي أعلن نفسه إمبراطور لعرب، والذي عراه ذلك الصحفي الذي يبقى صديقا قاسيا وحقيقيا للعرب والأهالي لم تعد مقبولة لدينا لأن نتيجتها كما وصفها السيد جاك ألود هي أن "نظل عبيدا وعمالا تابعين إلى الأبد"، في حين يعمل النظام الفرنسي الجمهوري على التوحيد الحقيقي والمزج العميق بيننا وبينهم لأجل ترسيخ العنصر الموحد الواحد.

الفصل السابع

النخبة

في مقابلة هذه البورجوازية المحافظة الثابتة لدى أفكارها القديمة وطبقة "العمائم القديمة" -كما تسمى- نجد النخبة تشكل نقيضا حي من هم "النخبة" أولا ؟

إنهم ذلك الشباب الناشئ في الجامعات الفرنسية والذين استطاعوا -بفضل عملهم- أن يرتفعوا فوق العامة، ويتموقعوا في الجزائر الحاملين للحضارة عن جدارة، وهو نيشان لا تستطيع منحه لكل أهالي الجزائر.

ومهما كانت تقريبية هذا التعريف فهو كاف لحد الآن، والواقع أن هذه المنحة محدودة جدا، والذين يشكلونها يعدون على الأصابع، وهم أول من يعترف وإذا كان هذا الأمر مؤسفا فإننا لسنا بصدد تحديد سعته ومداه في هذا، وكل ما نهدف إليه هو إلقاء الضوء على مدى صحة التهم إليها وتبيان المشاعر الخفية الواقفة خلف كل تلك التهم، والتي تخفيها الانتقادات بعنفها وعفنها.

لقد لاموا ولا يزالون هذه النخبة وبعض وجوه اللوم الجادة منها كتاب صدر مؤخرا للسيد أسيرفيي[1] حول الوطنية الإسلامية.

لكونهم غير راضين عن وضعيتهم الجديدة كما يقول رئيس التحرير الممتاز لجريدة "لا بياش دي كونسطانتين"، ولكونهم عاجزين عن العمل شاكلة إخوانهم في الدين ممن هم أقل تكوينا ؛ ولكونهم مغرورين بعض الشيء بسبب شعورهم بامتيازاتهم على إخوتهم، فقد صارت عقول هؤلاء الشباب أرضية خصبة لنمو أصناف من الأحلام المجنونة والأفكار الخبيثة.

من جهة، لقد عمل غرورهم واعتزازهم السخيف بأنفسهم على جعلهم غير محببين إلى قلوبنا والنتيجة أنهم نتيجة لعجزهم عن مخالطتنا نحن وعن أبناء ديانتهم صاروا معزولين تماما عن المجتمعين كليهما، وكانت النتيجة - حيث لا يشعرون- امتلاء نفوسهم بشعور المرارة والسخط، وصاروا يعلقون أسباب فشلهم في تحقيق الأحلام التي هندسوا لها على أحد مشجبين : جهل "العمائم القديمة"، أو صلافة الأوروبيين ونواياهم السيئة.

1- A. SERVIER : Le nationalisme musulman en Egypte, en Tunisie, en Algérie.

في الواقع، هؤلاء الشباب يحلمون بلعب دور ما في شؤون البلاد ارتكازا. قناعتهم بأنهم بلغوا أعلى درجات الحضارة ولما يملأ نفوسهم من الطموح. أثرت فيهم الحركة الشبانية التركية، والنجاح الذي كلل أعمال جمعية الاتحاد والنمو وجعلهم كل ذلك يرون آفاقا بعيدة.

إنهم يريدون النهوض بالإسلام من تخلفه الذي طال كثيرا بالعمل على توحيد الاتجاه الديني والمهدي أساسا الذي يتشبث به أصحاب "العمائم القديمة" مع الاتجاهات المعاصرة للأجيال الإسلامية على قواعد مستعارة الحضارة الغربية، أو على شاكلة الشباب المصري الذي يهتف : "مصر للمصريين" فقد وصل شبابنا نقطة التساؤل : ألا يجوز للجزائريين التساؤل حول إمكانيتهم شغل مساحة أوسع في دوائر الحكم وتسيير الأمور على الأقل في غياب المطالبة بجزائر للجزائريين".

مجمل قول السيد سيرفيي هو أن هذه الطبقة مشبعة بالغرور والكبرياء وأنها تحلم بلعب دور في شؤون الحكم، وترتكز على الامية الإسلامية مستلهمة من جمعية إيجاد وتقدم أفكارها وآرائها، وتحلم برمي الفرنسيين في البحر.

هذه الأفكار التي يعرضها إعلامي يقدر الجزائريون آرائه كانت ستكون مرحبا بها لا ريب لولا ما تفضحه من شعور عدائي صوب هذه النخبة، وسنعمل فيما يلي على مناقشة بعض النقاط الواردة في المقتطف السابق بهدوء وتعقل وإن كانت بلاغتنا لا تبلغ بلاغة الإعلامي الجليل في كل حي.

أول ما نتساءل حوله هو سبب وصف هذه النخبة بالكبرياء والغرور إلا إذا أدرجنا ضمنهم هذا الجيش من "الشاوش" والكتاب العموميين وفتيان الصيدليات الذين يمضون في نهاية يوم عمل شاق، العصا في اليد والشاشية على الرأس للاقتعاد في أحد المقاهي المغربية التي يتجمعون فيها لتبادل الانطباعات والتعليق على أحداث اليوم، ذلك أنه لا يجب أن نعني بتمية "شباب الجزائر" سوى أقلية محدودة تلقت تربية جادة هي تلك التي تنتمي إلى سلك الأطباء أو القضاء أو التعليم أو التشريع الإسلامي.

من بين هؤلاء هل يمكننا ذكر بعضهم ممن بلغوا "أعلى درجات الحضارة"؟

هل يمكننا إقامة الحجة على كونهم تملؤهم الكبرياء ؟ علام ترتكز الأحكام السابقة ؟ هل لو نسب ذلك أن بعضا منهم يقود سيارات بدلا من السير على القدمين مثل جل البورجوازيين.

لقد أدى شعورهم بتفوقهم العقلي، فهل في الأمر إدانة ؟ لا طبعا بل إنه شعور ضروري أحيانا للوعي بالذات، إننا نرى من يعي ذاته بهذا الشكل ملتزما بكرامته الشخصية وشديد الارتباط بواجبات طبقته الجديدة.

"الأحلام المجنونة" لا تجد أرضية لها إلا في الدماغ الناقص للطالب نصف المتعلم الذي يصقله جو الزوايا الخاص بالخرافات القديمة التي تتكرر باستمرار والقصائد الحماسية التي تعج بها تلك الأمكنة وهي أحلام لا تستطيع سكنى الذهن الإيجابي لشاب رأى بأم عينه على خرائط أستاذ التاريخ والجغرافيا القوة السياسية والعسكرية لفرنسا الواقع سيتغلب بسرعة على ما تلده لحظات الغيظ من أفكار خبيثة في ذهن الشباب الجزائري.

إذا كانوا غير لطيفين مع جيرانهم –وهذه ملاحظة خطيرة، خاصة وهي تصدر ببنط عريض على الصفحات الجادة لجريدة مثل لاديباس دي كونسطانتين- فاللوم لا يقع على النخبة ولا على غرورها المزعوم بل يقع على الفروق الاقتصادية فحسب.

الشبان الجزائريون بصدد التحول إلى أنداد جديين - ذلك أن هنالك تحت كل سوء فهم قضية مادية ما- وهذا أمر لا يحتاج إلى شرح كبير.

هذه النخبة تحلم بـ "لعب دور في تسيير الأمور وشؤون الحكم". أليس هذا الأمر طبيعيا بالنسبة لإنسان يريد استغلال تكوينه الجيد ثم لماذا تكون أبناءنا إذا كنا سنحرمهم من مهمة تجمع النبل إلى كرم النفس.

إذا كان بعض الشباب الجزائري المتجنس والحامل للشهادات الجامعية يصرخ عاليا بسخطه نتيجة لحرمانه من بعض الوظائف، أليسوا على حق ثم أليسوا أصحاب أولوية بالنسبة للمهاجرين الذين تعج بهم الجزائر ممن يشغلون هذه الوظائف ؟

ما فائدة علمهم إذا كانوا مهمشين وسط الأمة الفرنسية التي تبنوها والتي يرنها تفضل عليهم المهاجرين ؟

لو كانت هذه التفرقة تشمل فقط أبناء الأهالي ممن حرسوا وارتقوا أدراج العلم ثم حرموا تلك الوظائف المربحة لهان الأمر، أما أن يحرم منها أولئك الذين قبلوا التجنس بجنسية فرنسية بسبب مولدهم -وهو سبب لا يجهر به أبدا- فهذا أمرا لا من السياسة ولا من الكرم.

إن التجنس الذي أقدمت عليه كل هذه النخبة عمل شجاع لأنه يواجه إشكالية دينية. هؤلاء بجعل الشأن الديني مسألة فردية

وما يواجهونه مما نحن بصدده يثبط المتجنسين كثيرا بعد أن تثبطهم صنوف من العوائق على رأسها عائلاتهم التي تتنكر لهم.

لأجل ما سبق علينا تيسير أمورهم وتشجيع مبادراتهم الشجاعة ووقوفهم ضد تيارات قوية، وأخص بالذكر أولئك الذين نصفهم بأبناء العائلات الكبيرة.

من منا يستطيع وصف الصراع الداخلي الذي تشهده روح البعض منهم ؟ من يمكنه القلق والتردد الذين ملأ نفس أغلبهم قبل أن يتخذوا القرار الذي سيحدد مصيرهم ويغير وجهة قدرتهم نهائيا ويبعدهم عن عائلاتهم الجزائرية المسلمة إلى غير ما رجوع، وأحدد صفة "الجزائرية" لأنها التهمة التي يتعرض لها المتجنسون بدءً من التسمية التي يلصقونها بهم "لمتورني".

ستجدون بلا عسر مفتيين يقرون بأن التجنس خروج عن الدين، رغم أن هذا خطأ مستعدون للبرهنة عليه ذات يوم، ونحن تلامذة أحد أفضل المفتين على الإطلاق بل إننا نقر بأن هذا الأمر لو كان صحيحا منذ مائة عام فإنه ليس صحيحا اليوم.

إن هؤلاء الذين يرونه وعن وعي، يأتون ليرتموا بين أحضان فرنسا هم أهل لتشجيع الإدارة الفرنسية من جهة، وأهل لإكبار الجميع، من جهة أخرى، فبعد انتقاد جميع أبناء دينهم، وبعد

صنوف اللوم من عوائلهم، يجب ألا يلقوا الصد من قبل الإدارة، أو التخوف من قبل إخوتهم الجدد ليصيروا "على هامش الضفتين كلتيهما" لأن هذا السلوك قد دفع سابقين إلى الندم الشديد على ما أقبلوا عليه وسيدفع اللاحقين إلى عدم الإقدام استفادة من تجارب السابقين.

هذا الشعور هو نفسه الذي وضع عليه اليد محرر لوتون Le temps السيد فيليب ميي، في مقال رائع وبنظرة قليلة نظيرتها في العمق والتبصر : "لا توجد وضعية أكثر تأثيرا من وضعية هؤلاء الرجال الواقفين على الحد الفاصل بين عاملين".

لافيت مدرسا قبائلي الأصول تجنس بالجنسية الفرنسية وتزوج بفرنسية النموذج نادر، ولهذه الندرة سبب وجيه : "لم أجرؤ على العودة إلى بلدتي، لم يرحبوا بي أبدا، فقد مات أبي دون العفو عني"[1]... لم يعبر الأستاذ عن أسفه، ولا يسمح له عقله ومنطقه أن يندم على ما فعله، إلا أن شعورا دفينا بالألم سببه العزلة كان هنا ليدفعه إلى الرغبة في مغادرة الجزائر وإننا نعي جيدا أن كثيرا من الناس يجنبون أنفسهم هذا الشعور وهذا الموقف البطولي.

1- يبدو لي هذا الاعتراف مبالغا فيه.

سيطالب أبنائي إن كانوا، بالجنسية الفرنسية –قال لي أحد الأهالي من أبناء رفيعة جدا- أما أنا فلا أستطيع الإقدام على ذلك، سأقتل أبي بفعلتي تلك ! وهذا الموقف شبيه عندي بأولئك الأوروبيين الأحرار الذين يعمدون أبناءهم لا شيء سوى لتجنب النقاش والألم لأناس قريبين من قلوبهم"[1]

ثم إنه لا محال للتقول حول برنامج الشباب الجزائري فقد تم تعديله مرارا وآخر تعديل له قد تم مؤخرا فقط، فقد قدم الدكتور المحترم : بن ثامي، في باريس رفقة بعض الزملاء مذكرة تحمل رؤيتهم وتحوي مجموعة من المطالب التي تسمح لنا بفهم فكرهم وتقييمه.

إن المطلع على المذكرة سيكون بلا شك على بينة من مستواهم وسيجد قبالته نقطتين حاسمتين توضحان سلوك هذا الشاب الجزائري:

الأولى هي الارتباط الوثيق لهؤلاء الشباب المسلمين الجزائريين بفرنسا، ويمكن للإدارة الفرنسية أن تطمئن على سيرورة الأمور بعد طول قلق مبرر بلا شك.

1- Revue de Paris, Novembre 1913.

والنقطة الثانية هي عدم اهتمام مهم بالدعوة التي طالما أخافت الفرنسيين الراغبين في المحافظة على غلبة العنصر الفرنسي في الجزائر والتي مفادها حصول الأهالي على حقوق المواطن الفرنسي؛ حقوق لا يطالب بها هؤلاء أصلا حتى لفائدة النخبة.

وقد يغنينا في هذا المقام نشر هذه المذكرة عن كل إضافة:

مذكـــرة

حول التدابير التي يطالب بها المسلمون الفرنسيون في الجزائر كتعويض عن التجنيد العسكري

إن الظروف التي تم فيها التجنيد العسكري بتاريخ 13 فيفري 1912- قد ولدت شعورا بالاستياء لدى كل الجزائريين، وهو شعور من شأنه أن يتطور إلى ما هو أخطر إن لم يتم توضيح الأمور جليا.

إزاء هذا الوضع، رأى الأعيان المضنون أسفله، والذين هم الممثلون الأفاضل لجماهير من الأهالي، أن يتوجهوا إلى حكومة العاصمة لتوضيح الوضع المتمثل في شعور الأهالي بأن هذا الحمل الذي جاء يعضد أحمالا ثقيلة سابقة، لا بد أن يوازيه شيء من التخفيف عن كاهلهم.

هؤلاء الممثلون، والذين استوحوا آرائهم من الطلبات الكتابية الكثيرة الصادرة من المقاطعات الثلاثة للجزائر، والمقتنعون بأنه على أبناء فرنسا أن يجيبوا ندائها دائما، هؤلاء السادة يعلنون أن أهالي الجزائر مستعدون تمام الاستعداد لأداء كل واجباتهم إزاء الوطن الأم.

إلا أنهم يرون ضرورة ما يلي:

أ- تقليص مدة الخدمة الوطنية إلى سنتين مثلما هي حال المجندين الفرنسيين.

ب- الاستدعاء في سن 231 بدلا من 18 سنة لعدم استعداد الشباب البدني في تلك السن.

جـ- إلغاء المنحة لأن العائلات ستكون فخورة بأبنائها وهم يخدمون في صفوف الجيش الفرنسي دون تعويض مالي.

ويطالبون -بالموازاة- بالتعويضات الفعلية التالية :

1- إصلاح نظام العقوبات.

2- تمثيل جاد وكاف في المجالس هنا في الجزائر وكذلك في العاصمة.

3- المساواة في نظام الجباية والضرائب.

4- التوزيع العادل للموارد بين مختلف عناصر الشعب الجزائري.

أولا: نظام العقوبات

الأهالي يخضعون في حالات الجنحات والجنايات لقانون استثنائي يبتعد كثيرا عن القانون العام، من ذلك أن وضعية "الأهلية" تستحدث قوانين خاصة وعقوبات خاصة لا يتم تطبيقها في المحاكم بل من قبل أعوان الإدارة فقط، وهذا خرق صريح لمبدأ التفريق بين السلطات.

من جهة أخرى يتم الاحتكام لمجالس الردع -كما تسمى- التي لا تحترم أية قاعدة مت الإجراءات القانونية المعروفة.

لنذكر بأن هذه القوانين لا تعود إلى مرحلة الاحتياج وإنما تعود إلى تواريخ قريبة هي 1881 ثم 1903.

أحد أغرب الأشياء هو ما يسمى الحبس الإداري، وهو حبس لا يخضع لأي نص ولا يرتكز على أية قاعدة قانونية رغام تطبيقه الشائع جدا ؛ إذ يكفي أمر من الحاكم لكي يجتث الشخص من وسط عائلته وأعماله ليحبس دون شرح ولا دفاع ولا تفسير، فيوضع في حبس خاص لمدة غير محددة، وربما يتم ترحيله إلى مكان بعيد جدا عن بيته عمله وإخضاعه لإقامة جبرية.

إن أهالي الجزائر يطالبون بتغيير جذري لهذا الوضع.

ثانيا :تمثيل الأهالي

هنالك هياكل في الجزائر يفترض للأهالي أن يكونوا ممثلين في صلبها، يمكن في المجالس البلدية مثلا أن يكون لهم ربع المقاعد دون أن يتجاوز الحد الأقصى ستة مقاعد.

في المجالس العامة، عدد المقاعد لا يتغير أبدا ستة مقاعد.

في المندوبيات المالية، أين يكون العدد الإجمالي 69 عضوا يشمل الأهالي 21 مقعدا 15 منتخبين، و6 يعينهم الحاكم العام من العساكر.

في المجلس العام وأعضاؤه 59 عضوا، يوجد 7 أهالي، 4 من صلب المندوبيات المالية و3 يعينهم الحاكم العام من العساكر.

واضح جدا أنه لا تمثيل حاد أو مجد للأهالي في المجالس المحلية، عددهم المحدود يجعلهم في كل مكان دون فائدة وعاجزين عن لعب دور التمثيل الحقيقي.

ثم إنهم لا ينتخبون لا شيخ بلدية ولا نائب له، ولا يلعبون في النهاية أي دور في التوجيه الإداري للبلدية.

أما تعيينهم فيخضع لهيئة محدودة جدا تمنع كل هامش للحرية، إن الهيئة الانتخابية تحوي:

1- بالنسبة للمجالس المحلية : الموظفين، المتقاعدين، الملاك، المزارعين، حاملي الوسام الشرفي، أو الميدالية التذكارية. ويستبعد التجار، الصناع والذين يشغلون المهن الحرة: المحامون، الأطباء، وأرباب التجارة ليسوا ناخبين.

2- بالنسبة للمجالس العامة لا تشكل الهيئة من : المنتمون إلى المجالس المحلية من الأهالي والأعوان الأهالي، وبسبب تبعيتهم للإدارة "الولاية" وبسبب كونهم يشكلون الأغلبية دائما، فإن المنتخب هو دائما منتخب الإدارة، وهذا ما يجعل تمثيلهم صوريا لا معنى له، فهم لا يمثلون إلا الإدارة التي يشتغلون تحت إمرتها، تلك هي حال تمثيل الأهالي.

لهذا فالأهالي يطالبون بما يلي :

1- توسيع الهيئة الانتخابية لضمان تمثيل فعلي ونزيه أثناء الانتخاب.

2- رفع عدد الممثلين الأهالي في كل المجالس إلى خمسي المقاعد على الأقل.

3- توحيد تشكيل الهيئة الانتخابية بالشكل نفسه في الجزائر كلها، فإذا تم اللجوء إلى دوره انتخابية ثانية لتعيين أعضاء

المجالس العامة والمندوبين الماليين، يجب ألا يكون الحق في الانتخاب متاحا سوى للمنتخبين المحليين باستثناء الأعوان الأهالي.

4- أن يحق للمنتخبين المحليين أن يشاركوا في انتخاب شيخ البلدية ونوابه.

5- إبعاد إمكانية الانتخاب عن وظائف مثل "القايد" والعون الأهلي.

6- تمثيل الأهالي في البرلمان الفرنسي، أو استحداث هيئة عليا في باريس يتم تمثيل مسلمي الجزائر فيها من قبل منتخبين يتم انتخابهم من قبل الأهالي أنفسهم.

7- أن يسمح لمن أدى الخدمة الوطنية أن يحصل على درجة مواطن فرنسي بطلب بسيط ودون إخضاعه للشكليات المعقدة المنتشرة حاليا.

ثالثا : توزيع الضرائب

لا بد من تصحيح المنظومة كليا مع الارتكاز على مبدأ المساواة في توزيع الأتعاب.

رابعا : توزيع الموارد المالية

إن المستعمرة الفرنسية هي الوحيدة المستولية على الموارد المالية بفضل التمثيل الحقيقي الذي تحضى به وفي حين يتمتع العنصر الأوروبي بخيرات هذه الأرض، تجد الحاجات الأكثر إلحاحا للأهالي عسرا كبيرا لكي تُقضى.

ونرى جليا كيف أنه يتم تبديد كيف أنه يتم تبديد أموال كبيرة، في بلديات كثيرة على أمور ومشاريع لا فائدة ترجى منها، في حين لا يحضى الجزائري سوى بالأعمال الشاقة.

إنه لوضع مغيظ إذا ما فكرنا جيدا فرأينا أن أغلب الموارد مصدرها الضرائب التي يدفعها الأهالي، ولهذا يوضع أمل كبير على خلق تمثيل حقيقي للأهالي في أجهزة الدولة للعمل على تصحيح الوضعيات.

هذه المطالب التي يقدمها ممثلوا الأهالي وكلهم ثقة في عدالة الحكومة والجمهورية والتي نعلم أنها لن تدّخر جهدا لخدمة الصالح العام، الفرنسي والجزائري معا.

تلك هي الإصلاحات التي تنادي بها هذه النخبة، إننا لا نوافق كل ما ورد فيها، وبما أنّ جل من شارك في تحريرها من

الصحفيين فإننا سنبدي لهم آراءنا في الوقت المناسب على الصحيفة المناسبة.

ولكن، وبعد معاينة هذه النقاط الواحدة تلو الأخرى، هل تفضح فعلا نزعة إسلامية ما ؟ سواء جهرا أو سرا ؟ ...

هل يوصف بالإسلامي من يقبل بحمل السلاح في الصفوف الفرنسية ؟ إنه تصور غريب للإسلامية !

الأدهى والأمر من كل شيء هو أن هذه التهم السطحية الجائرة قد ولدت ردود فعل ومواقف مؤسفة، وأوجدت جوا مكفهرا نخشى كثيرا ما يمكن أن يترتب عنه.

هذه النخبة المتحركة، والتي توصف بالنزعة الإسلامية والوطنية هي في معظمها شباب نال تكوينا عاليا في المدارس الفرنسية، وأغلبهم لا صلة له إلا بالفرنسيين أصلا، كثيرون يعيشون على الطريقة الفرنسية، وليسوا قليلين من تزوجوا أصلا بفرنسيات، والأغلبية الساحقة منهم قد قلصوا ممارستهم للدين إلى الحد الأدنى الذي هو النطق بالأمر... أن يجوز مع ذلك وصفهم بالتطرق الإسلامي؟

قليل من المنطق أرجوكم !

أعتقد أن هنالك نزعة من قبل بعض الكتاب أصحاب الخيال الخصب هدفها تكرار رسم صورة مارد "الإسلامية" إلى حد إيهام المتسرعين بوجوده حقا.

إنه لمن الغريب أن هذا المصطلح لم يكن معروفا أصلا في الجزائر منذ ثلاثين سنة –حسبما ينقله الشهود- في حين نجده اليوم منتشرا تتندر به الأفواه الأكثر سذاجة أن يشتد أحد الطلبة الثانويين في اللجاجة على صاحبه حتى يرميه هذا الأخير بكل سخرية قائلا : "جذع شجرة صار إسلاميا !".

أنعني بالإسلامية ذلك الشعور بالملاطفة الذي يملأ صدر بدوي "سطيف" إزاء أخيه المسلم بالمدينة المنورة ؟

إذا كان الجواب : نعم، فإننا لا نرى في ذلك غرابة، وأي شيء أكثر منطقية من شعورنا بالقرب ممن يشاركنا العقيدة والأحلام والمخاوف والتاريخ والطقوس والأخلاق، خاصة إذا كان هذا الشخص بعيدا لا يتعارض وجوده مع وجودنا في أي شيء.

أليست هذه الحال هي نفسها لدى جميع اليهود وجميع المسيحيين ؟

أما مسألة القرب بين الشباب الجزائري وبين جمعية اتحاد وتقدم الإسطنبولية فلا دليل عليها.

إن التبرعات التي قام بها الصليب الأحمر لفائدة جرحى الحرب الإيطالية التركية في طرابلس هي مبادرة من مجموعة من رجال الدين القسنطينيين، من بينهم إثنان يحملان وسام الشرف، وليست مبادرة الشباب الجزائري. فإذا كانوا قد اضطلعوا بالأمر فيما بعد فما ذلك إلا للتقرب من المبادرين الذين أرادوا خدمة عملهم الخيري مستعينين بالصحافة الأهلية.

ما نأسف له هو أن الجرحى الإيطاليين لم يستفيدوا من هذه المنح المالية، وإلا لكان ذلك درسا رائعا في السماحة والتسامح، حتى وإن كانت ستواجههم رياح التعصب لدى الجموع، إلا أنهم كانوا سينالون شرف المبادرة !

إن "العمائم القديمة" نفسها تحظى لدى الصحافة الأوروبية المغرضة بكثير من الانتقاد "إنهم –كما يقول السيد سيرفيي- أناس شديد والارتباط بالدين الإسلامي[1] وخاضعون للتعاليم المهدية[2] " ثم يعلمنا، بعد ذلك بصفحات بأن "الإسلام محافظ شرس، وأنه كان التعصب داء عضالا فإن التعصب الإسلامي

1- A. Servier : Nationalisme musulman, p132.
2- ID, p 190.

تحديدا لا أمل يرجى منه، وأن الإسلام غير متلائم مع الحضارة لأنه جوهريا ضد كل أشكال التقدم" [1]

ما المقصود إذن ؟ أن "العمائم القديمة" لا يفعلون سوى خداع فرنسا بإظهار مظهر مسالم، وأنهم لا يفعلون سوى ممارسة "التقية"[2] بإظهار الرضا وإبطان السخط لعجزهم عن الحركة، وأن هدنتهم مؤقتة فحسب وأنهم يتربصون بالمسيحية في انتظار ظهور نزعة أممية إسلامية ما.

إننا نعارض هذا الكلام معارضة جذرية، إضافة إلى كونه كلاما قديما بعض الشيء لأن السيد سيرفيي نفسه، ومنذ أسبوع فقط، نشر على صفحات تعابير المدح وأكثرها بلاغة، تلك البلاغة التي يملك ناصيتها إلى درجة تخلبنا في كل مرة.

إلا أن هذه البلاغة تعجز كثيرا في تفسير الهوة الكائنة بين ما كان يقوله في حق الشيوخ منذ عام ونيف وبين ما يقوله اليوم :

"إن برنامجهم يتلخص فيما يلي :

1- الوفاء للدين الإسلامي.

2- الوفاء لفرنسا.

- ID, pp 192-193.
- ID, p 133.

3- حب التقدم

إنه نفسه السيد سيرفيي الذي يرى المسلمين عاجزين عن كل تعامل مع المسيحيين ويرى الإسلام غير متلائم مع التقدم، وهو رأي خاطئ أو على الأقل محل للجدل المثير للسخرية هو أن الرجال الذين يمدحهم اليوم ويصادق على برنامجهم، هم قلة أكثر شيء يميزها تدينها الشديد، فالعبارة الافتتاحية لبرنامجهم الجديد حقا بكل احترام وتقدير هي أنهم يريدون وينوون احترام الشريعة الإسلامية.

الاستنتاج الذي يرفض نفسه هو أنهم لا يمكنهم بأي شكل من الأشكال أن يكونوا أصدقاء التقدم ولا أصدقاء لفرنسا.

هذا ما يجره كلام السيد سيرفيي، حلل وناقش !

لن نطيل أكثر مع موضوع "الإسلامية" الذي لا جدوى منه هذا وسنحتم بكلمة نصيحة قالها أحد المتأدبين المسلمين (المستشار السابق لمنطقة تلمسان) في وجه متحرٍّ جاء للبحث والتفتيش في الشأن الأهلي:

"لا نزعة إسلامية ولا وطنية في الجزائر، قال السيد بن رحال، فإن كان موجودا فلا بد أن سيادتكم هي التي اخترعته"، ونضيف أنه على الضفة الأخرى مثلما يقال، أي ضفة "العمائم العجوز"، الذين

هم أناسا مسالمون وعمليون[1]، سيجمع هذا الجيش الرهيب قيادته لأنه لا يجب أن ننسى بأن الانتظار الهادئ لا يعني الاستكانة.

من المناسب، لختام هذا النقاش، أن نبين ثانية المشاعر الحقيقية لمسلمي الجزائر إزاء فرنسا، وهو ما تعكسه بلغة رائعة رسالة السيد مختار حاج سعيد أحد الشباب الجزائريين اللامعين هي ذي الرسالة :

السيد رئيس تحرير لا ديباش دي كونسطانتين

إن من تسمونهم في ورقتكم بتاريخ 20 جانفي "العمائم الشابة" أو "الأتراك الشباب" أناس لا علم لنا بهم. أما نحن فإننا ببساطة شباب فرنسي مسلم ولا نريد غير ذلك، لهذا فلا حاجة لنا للإعلان بأن عدو وطننا هو عدونا اللدود مهما كانت جنسيته وديانته وأعتقد في هذا السياق أن حملة المغرب الأخيرة كانت فصيحة في هذا الشأن إذا كان السيد باش حمنيه يقود في تركيا حملة ضد فرنسا، وهو أمر دون يقين، لأن قبول منصب في القضاء شماني لا يعني بالضرورة الخيانة أو النوايا العدوانية إزاء بلادنا، فإن تيقن الأمر فإننا لن نتوانى لا عن نكرانه فحسب فهو لا شيء في حسباننا بل عن عدة عدو لنا.

1- Servier : Natinalisme musulman, phrase déjà citée.

بالنسبة لي شخصيا أي السيد باش حمنيه صديقا ومعجبا لفرنسا إعجابا شديدا، قد يكون قد تغير، والتغيير من ديدن الساسة؛ إلا أنني أقر بأن السيد باش حمنيه الذي أعرفه شخصيا ليس منافقا ولا مرائيا بل إن خطيئته الوحيدة هي صراحته الكبرى.

ثم إنه لا يجب نسيان أن السيد باش حمنيه ليس مواطنا فرنسيا مثلنا بل تونسي أصوله تركية، إنه إذن أجنبي تحت حماية فرنسية.

ومهما كان فإننا نكرر بأنه إن عادى بلادنا عاديناه أشد عداء فبلادنا واحدة ما لنا غيرها، أما إسطنبول والخليفة بالنسبة لنا نحن المسلمين فهما مثل روما والبابا بالنسبة للمسيحيين، لا غير.

ومجمل القول أنه فيما عدا شيء من الملاطفة مصدرها الديانة المشتركة فإنه لا يجمعنا شيء مع الأتراك والفرس والمصريين أما بالنسبة لادعاءات القرابة مع جماعة "اتحاد وتقدم" وادعاءات النزعة الإسلامية فإننا نعلن ونقر بأنها لا توجد إلا في مخيلة بعض خصوم السياسيين وأحسن ما نجيب به هذه الادعاءات هو التساؤل حول الفائدة المرجوة من قرابة ممكنة بين إسطنبول والشباب الجزائري.

لقد كان لنا سلوك نبيل منذ سنتين حينما اضطلعنا بالتبرعات لفائدة جرحى حرب طرابلس ولسنا آسفين، بل فخورين إلا أنه قد تم تنظيم نفس الأمر في فرنسا قبل أن نفعل ثم إن الأمر قد تم بموافقة من السلطات فلا نقاش حول هذا الموضوع بعد هذا.

هذه سيدي بعض الشروح الواضحة القاطعة.

إن هذا الرد لا يحمل إلا إمضاءً واحدا هو إمضائي إلا أنه يعكس بالتأكيد فكر وجد أن كل الأصدقاء الذين يضعون الطربوش أو القبعة أو العمة دون تمييز فكل واحد حرّ في اختيار غطاء لرأسه ونضيف كلمة إن سمحتم إنكم إذ تكتبون بأننا نطالب للمسلمين بالحقوق التي يقر بها الدستور لكل مواطن فرنسي تخطئون، ربما دون قصد إلا أنكم تخطئون كثيرا لأننا لم ولن نفعل والباب لمن يريد أن يحلم بذلك.

ما طالبنا به هو مجموعة من الاصطلاحات هدفها تحسين وضعنا الاجتماعي، إن آمالنا ومطالبنا شرعية في عيون الجميع والدليل أن السيد الحاكم العام قد أصدر أمرا ثم مرسوما مؤخرا، ينتصر لما رأيناه.

اقرؤوا سيدي أو أعيدوا قراءة الورقة التي سلمت في جوان 1912 لرئيس الحكومة من قبل الوفد المسلم إلى باريس وسيتضح

كل منهم حول نوايانا. أملي كبير في سعة صدركم كي تنشروا ردي، إنني سيدي خصم سياسي لأنني أعارض آراءكم لأنني أي حملتكم في لا دياش دي كونسطانتين ظالمة وباعثة على الحقد والتفرقة بين الأوروبيين والأهالي، العنصريين الذين لهما كل ما يجمعهما ويؤهلهما للعيش في سلام والعمل يدا في يد لأجل خير البلاد وعظمة الوطن. إلا أنني أعدكم دوما خصما أمينا وإعلاميا موهوبا.

فإن حدث وجرتنا التقلبات السياسية صوب أرضية للتصالح والاتفاق سيكون أول من يمد صوبكم يدا أخوية.

تحياتي واحتراماتي كلها.

مختار حاج سعيد

محامي

إن الشباب الجزائري مثله مثل إخوانه الكبار فرنسيون طيبون : فإذا تحرك هؤلاء ولبث أولئك صامتين،فلا يجب قراءة الأمر على أنه معارضة وتضاد، فكلهم قدموا لفرنسا علامات الولاء، ومتى ما حلى بينهم سوء الفهم وعلو النبرة، لا بد من فهم ذلك كعلامة على مجيء زمن جديد، فالنقاش الوسيلة المثلى للتقريب بين الطرفين الذين تظهر الفرقة بينهما.

إن رجلين يتناقشان هما رجلان في الطريق صوب التفاهم، لهذا نأمل أن يدخل كل العناصر الجزائريين في النقاش للبث في الأمور والجدالات العالقة، وتبيان مواقع الخلاف، ومواصلة المهمة التي بدئ في تحقيقها تحت الألوان الثلاثة للعلم.

ستصير مهمة كل شخص أخف وأيسر وتكون ثمار العمل الجماعي أفضل آنذاك وهذه هي الأفكار التي نتمنى أن يعرضها ويدعو لها إعلاميون من قبيل السدي سيرفيي؛ آنذاك نكون إزاء فتح لسبل "دوبان ليس فقط ممكنا بل إنه ضروري"[1].

من أجل هذا، لا بد على الشباب الجزائري أن يعمل بحذر وهدوء، فإذا كنا نقر بوفائهم فإننا نرفض العنف الكبير الذي يطبع جل كتاباتهم، وحتى إذ صح أن المحررين الأصليين لهذه

1- Bourdarie : La question indigène.

الكتابات هم فرنسيون من المعارضة يخفون أسماءهم فإن ذلك بلا أهمية في ظل نشر هذه الوراق على صفحات جرائدهم. نضيف إلى ذلك الهجومات الشخصية الكثيرة التي تتخذ لها من هذه الصحف مسرحا، وهو أمر يشين ما زانه نبل قضيتهم.

من جهة ثالثة، نلاحظ نشره هذه الصحف للأخبار والتفاصيل المثيرة والفضائح بعيدا عن روح التحري والصدق، ودون تقدير للعواقب؛ لذلك فإن الحاجة ماسة لجهاز رقابة قوي يمنع عنها ما صار لصيقا بها من خفة والسباب السافل.

أسوق مثالا فصيحا حول ما أتحدث عنه يتمثل في كوني منذ أشهر في قاعة الانتظار المكتضة لدى طبيب معالج، وكان من بين الحضور شابان من الشباب الجزائري وعلى صفحة إحدى الأوراق الموضوعة على الطاولة وبخط اليد قرأت: "عين مفقودة أخرى!".

تذكرت حالا واقعة مفادها أن أحدهم مسيري البلديات المختلطة قد فقأ عين أحد أعوانه بضربة سوط منذ أشهر كما نقلت جريدة لوطون Le temps وكان هرج كبير قد ثار، واتسع الجدل بعدما أدان الأمر محام جزائري ولم تتضح فحوى الحادثة إلى اليوم، لا من قبل الاتهام ولا الدفاع.

نسيت آنذاك الألم الذي جرني إلى ذلك المكان واستدرجني الفضول إلى طلب تفاصيل أكثر من الجالس إلى جانبي الذي توقعت أنه ليس مستبعدا أن يكون كاتب تلك الكلمات، ولم يخب توقعي، قال:

"الأمر وما فيه أن أحد الأهالي، في أوائل هذا الصباح، تلقى ضربة من ذراع بندقية على أم وجهه، ويبدو أن الفاعل هو أحد المعمرين" وواصل بكل حماس "إنني محرر في الجريدة، كما تعلم، ... وقد جئت إلى هنا للفحص، كما تعلم، إلا أنني لاقيت بالصدفة الرجل المضروب وهو في حال مزرية، وسيتم حالا إدخاله إلى الاستعجالات، لهذا جاءتني حالا فكرة كتابة مقالة حول الحادثة... وبما أن الجريدة لن تصدر إلا غدا فإنني أنتظر خروج الجريح لأحصل على تفاصيل أوسع.

– ضرب دون سبب؟

– دون أدنى سبب!"

صعقني ذلك الكلام فتركت القاعة وداهمت الطبيب لطلب الإذن بالحديث إلى الضحية المزعومة، كان الرجل عميق الجروح، وكانت عينه اليسرى في حالة خطرة جدا وأجوبته خبّرتني بأنه من منطقة جيجل، واتبعت معه طريقة مألوفة هي الهجوم مع النفي

"خبِّرني بالحقيقة وسأساعدك، إنني لا أصدق بأنه تم الاعتداء دون مبرر منطقي، أنا أعرفك وأعرف أصولك" وما أن عرف هويتي ومكانتي حتى قبّل يدي واعترف بجرمه وتوسل إلي كي لا أخبر أحدا.

الواقع أنه هو في طريقه إلى عمله دفعه الجوع أو لست أدري أي شعور شبيه إلى مدّ يده إلى ثمار الخوخ ببستان رآه وكان مجبرا للوصول إليه أن يطأ أرض البستان المجاور، وما كان من الحارس متيقظا إلا أن عاقب اللص المتسرب فكان عقابه أشد مما يطاق.

إنني لا أوافق ما فعله الحارس الأجنبي، وكل ظني أن العقاب لم يكن من جنس العمل، إلا أن الحقيقة هي ما عليه، والواقع أن هذه الخطيئة التي يبدو أن طرفيها هما ما رأينا قد صار لديها طرف ثالث كاد يجر العدالة صوب منزلق ما : إنه الصحفي والخفة التي يباشر عمله بها.

النقطة الأخيرة التي لا بد من الوقوف عندها هي لجوء صحافة الشباب الجزائري الكثيف للإمضاءات المجهولة، وأخلاقيات المهنة توجب عليهم التعود على التحلي بالشجاعة لمواجهة وتحمل تبعات آرائهم وإلا فالصمت.

ثم إنه على هذه الصحافة أن تقلل من التحامل على الإدارة التي نؤكد أن جل خدّامها تحركهم أحسن النوايا في عملهم وفي تعاملهم مع الأهالي.

أن يطالب الشباب الجزائري بتمثيل فعلي وواسع في المجالس وفي صلب الهيئات المنتخبة من أجل إيصال صوتهم، ذلك أمر لا ينكره عليهم أحد، بل إن الإدارة نفسها في أتم الاستماع لهذا الصوت الذي يقول الحق، وأنا موقن بأن إصلاحات قريبة ستظهر إلى الوجود في أقرب وقت.

أن يجتهدوا لأخذ مكان مسؤولين كبار في السن، أصبحوا عاجزين عن القيام بدورهم بالحيوية الكافية، أو مكان "غير المؤهلين"، ذلك أيضا أمر مقبول لا غبار عليه، بل أكثر من ذلك إنها سنّة الحياة التي لا اعتراض عليها.

أما أن يوجه النقد المتهجم اللاذع لكل المسؤولينن وكل الموظفين وممثلي الأهالي، وكل الأعيان المسلمين الذين عملوا بجد على الإصلاح والمصالحة بين الأطراف المتنائية، ووصفهم بالطماعين الجشعين المقتاتين من موائد الأسياد ومصاصي دماء البسطاء والعائشين في المياه العكرة[1]... ذلك هو ما لا نقبله بتاتا ولا

1- مجلة "إسلام"، بتاريخ 18 نوفمبر 1910.

أحد سيساند هذه الصحافة من أجل شتم أولئك الذين لم يفعلوا شيئا يستأهلون السباب لأجله.

صدقوني أيها الشباب الجزائريون، إنكم ستربحون أكثر وتتلقون أفضل لو عوضتم الشكوى والصراخ والأنين بالعمل على نزع الصدق من التهمة التي ألصقت بكم والتي ترى فيكم النقص، الغرور، الكبرياء والادعاء.

خلاصة

ها نحن قد عاينا المهام التي قامت بها الإدارة الفرنسية للتقريب بين عنصري هذا البلد واحدة واحدة، فرأينا ما يعانيه الفلاح البسيط في وضعه البدائي، كما ألقينا ضوءً كاشفا على أغوار نفوس بورجوازيينا، وكلنا أمل ورغبة في تبديد ضباب الظنون والأحكام المسبقة والأنظار الجاهزة، وانتهينا بالنظر الموضوعي التحليلي المقيم والمقوم صوب هذا الجيل الصاعد المسمى: النخبة.

لا بد أن كثيرا من الخطل والتهافت قد تسربا إلى هذه الصفحات إلا أننا نصر على ما هو أهم : النية الحسنة والقلب الصريح اللذان يقفان خلف هذه الآراء.

لقد ناقشنا وأبدينا الرأي في الأمور دون أي إيعاز من أية جهة ولا محرك لنا في مشروعنا كله سوى العناد الذي يصبغ البعض، والذي دفعنا إلى إضافة معزوفة إلى الكونسرتو الجزائري.

إن مختلف الآراء الصادرة عن مختلف الشرائح المعنية بالمشاكل شمال إفريقيا تهمنا بدرجة كبيرة، لهذا حرصنا على عرضها كلها، على تباين أصحابها بين شهير ومغمور، قبل إبداء آرائنا، ولنتذكر دائما أن المشاكل المذكورة واسعة المدى، شائكة وشديدة الحساسية.

تطور أعمال المساندة والتعاونيات إصلاح نظام "الخماسة"، والنظام الجبائي أو نظام العقوبات، التعليم، القيادة، تيسير أحوال المرأة خاصة، كلها من المشاكل الواجب ذكرها وإيرادها في الإطار الاقتصادي والاجتماعي والسياسي.

إن لبرنامج التعمير الذي تسهر الإدارة عليه شيء من عدم الاكتراث هو عمل شاسع واسع معقد كثير التفاصيل، لهذا فهو أهل لدراسة من قبيل ما فعلناه.

لذا علينا العمل بالمراحل وتقبل النتائج بثقة ورباطة جأش، وليس على طريقة ذلك الفلاح الذي سئل منذ مدة عن رأيه فيما آلت إليه الأمور فقال إنه يتمثل الحال على أنها "كارثة وطنية" إن تحجر التعصب والنقص الجوهري للأهالي هما مقولتان أكل الجهر عليهما وشرب.

ولا بد من الإقرار بالدور التنويري الذي كان للحضارة الإسلامي على هذه البقعة من الأرض، فإذا لاحظ البعض تخلف أهل هذه الأرض الحالي بالنسبة لجيرانهم فلا بد أن يتذكر دائما ما لماضي هؤلاء من أمجاد تنطق بالعلم والفن والأدب والذوق والتأنق.

إن بربر الجزائر ليسوا أسوأ ولا أفضل من إخوانهم الأفارقة، والأمر كل الأمر يكمن في جهرهم صوب الإيمان بالقلب والتصديق بالعقل بمدى جمال وعظمة المشروع الفرنسي على هذه الأرض إذا اقتيدوا بيد حازمة ولكن طيبة محبة، وجُذبوا من قبل روائع حضارة لامعة ومن طرف "مغناطيس المصلحة" أيضا.

فإنهم سينقادوا صوب المأوى الفرنسي الذي سيشعرون بالعزلة خارجه، سيلجونه بثقة وسلام، يقتاتون من عبقريته الخالصة، ويتدفئون بناره الحية ويعيشون بتقاليده النبيلة ومبادئه السامية.

آنذاك سنكون بصدد تتويج قرون من الاجتهاد والعمل والإصرار، وسيكون الرابح الأكبر هو أمة لها ثقة دائمة في أبنائها، فضلها الأكبر يكمن في حملها إلى كل مكان وكل زمان الأعلام الباهرة للحضارة.

الجزء الثاني

الحرب ضد الجهل

خطب ومحاضرات ألقاها نادي صالح باي

الأستاذ محمد المولود بن موهوب

أستاذ الفقه الإسلامي في المدرسة، والمفتي المالكي لمدينة قسنطينة، حامل وسام الشرف

(مقتطفات)

الأهالي والحضارة

خطبة ألقيت بمناسبة تدشين المدرسة

سادتي،

لست من أولئك الخطباء الذين يملكون ناصية الكلام معبرون بإعجاز عن زمرة واسعة من الأفكار، بل إنني في شيء من الحرج بسبب حضور هذه الثلة المباركة اللامعة وحدها طيبتكم ورصانة وجوهكم ونظراتها يجعلان آمل أن يمتد بساط رحمتكم تحت خطواتي غير الثابتة.

إن تدشين هذه المدرسة الجليلة يمثل بالنسبة لكل واحد منا حدثا من أهم ما يكون، والنتائج المرجوة من تجمعات كهذه لا تخفى على أحد، إننا إخوة والإنسانية تأمرنا بالتعاون وبجعل الصالح العام فوق كل اهتماماتنا.

تلك هي الوسيلة المضمونة لتحصيل المساواة الحقيقية، التي هي المشتلة المثلى لظهور حرية الفكر.

الإنسانية ! يا لها من كلمة رائعة ويا لها من هدية قلّ من تقديرها حق قدرها، ولكنها كافية إذا سكنت قبل امرئ واحد كي تحيله أمة كاملة.

المثال الإنساني

يميز الفلاسفة في الإنسان جزئين رئيسيين: الجسم المرئي والروح غير المادية، وكلاهما يتميز بميزاته : للجسم لحم وغطاء يتغطى به في حين أن الروح العقل والنفس والعبارة لهذا يعرف الإنسان أحيانا بالحيوان الناطق مع تعيين النطق كأشرف ما يمثل باقي الخصائص.

كذلك يميز العمل في الإنسان جانبين رئيسيين : الكائن الإنساني عموما والإنسان الرجل في المعنى الضيق للكلمة.

الإنسان هو ذلك الذي يعي الحقيقة فيقبلها ويعي الخير فيطبقه ما استطاع إلى ذلك سبيلا، هذا المثال الإنساني هو وحده الذي يمكننا بالسعي صوبه تجاور طبيعتنا، ولا نتراتب إلا على اعتبار درجة نجاحنا في هذا السعي، فإذا قلنا الشخص الفلاني أكثر إنسانية من الآخر فإننا في الواقع نجدد المسافة بينه وبين الحيوان.

من خلال تطوره في العلوم والنشاط الفكري ومن خلال ما يقدم لإخوانه من المساعدة من خلال رحمته، عدالته وروح المساواة لديه يمكن للمرء وضع ذلك الإكليل النادر "السعادة".

العمل الفرنسي

إن الأمة التي تعطي أناسا كثيرين من الصنف المذكور أعلاه هي التي تتمتع من السلام بقدر ما تختزنه من هؤلاء، رخاؤها يكبر ورعاياها يزدادون حبا وتوضع في عداد الأمم المتحضرة.

تماما مثل فرنسا التي ترينا من خلال العمل الصالح لممثلها الحاكم العام عنايتها الفائقة.

أنحن في حاجة حقا إلى تبيان محاسن الحاكم العام إزاء المسلمين وعلى رأسها المدارس العديدة المنشأة لمحاربة الجهل، والد كل أشكال التفرقة ؟ وبالنسبة للمدرسة التي نحن فيها، كلكم تعلمون ماضيها المخزي فقد كانت مأوى كل "الحشايشية" وكل "السكارى" في المدينة، وكانت مصدرا لصنوف من التشويه والجهل والتعصب والغيلان والأشباح/كانت مدرسة للجهل أساتذتها ضعاف العقول.

وها هو ذا المكان على ما ترونه اليوم عليه يحيلنا بما يشيعه من علم على بيت فيكتور هيقو :

"كل طفل نعلّمه رجل نكسبه"، أو على مقولة فولتير تلك: "إن أغلى هبة نقدمها للإنسان هي العلم".

هاتان العبارتان أليستا المنارتين اللتين يريد السيد الحاكم العام توجيه سفينتنا صوبهما ؟

لا ريب أنه لا سبيل للتحكم في القلوب سوى الخير والحب، "أشعر بألم أخيك، قال أحد الحكماء" وأعده إلى سواء السبيل إذا ضل فالضلال ديدن الإنسان".

الرجل نفسه قال : "عندما يعرف الناس اللطف الحقيقي، ستزول سبل الشقاق، إن القلب الذي تملؤه يعين الجميع وصدقات بعض الأطباء شفت أناسا أكثر مما فعلته أدويتهم. فلننزع الحمل عن الآخرين لنتخلص من أحمالنا" لقد قلت في كلمة قلتها لدى تدشين المكتبة الإسلامية :"الخير قد ينجح حيثما تفشل الأسلحة"، ويمكنني اليوم الإقرار دون مخافة الخطأ بأن قلوب المسلمين قد صارت بفضل حرص السيد الحاكم العام ملكا للجمهورية وبأن الميل صوب فرنسا قد فاق كل مرحلة.

كن كريما تملك القلوب كلها   فلكم قت القلوب لكرم الأعمال

إننا نلاحظ أن الأمة المتحضرة هي التي يتقاسم أناسها مشاعر اللطف والعكس صحيح، ماذا يمكن لفعل الرأفة التي يفعل؟ لقد رفض الإسكندر المقدوني بعد هزيمة العرب في صحراء شبه الجزيرة أن يبل شفتيه من كأس ماء جاء به جنود ديوتون

عطش يكفي فعل مثل هذا كي تريح قلب الجيش كله وقد قادهم مظفرين وغزى دمشق ثم المشرق كله.

الرأفة طبعا لا تعني الخنوع أو الزهد في الأعمال ؟ ما أعنيه هو نشر الأفكار المثالية بين الناس، هل بلغت فرنسا بوسائل أخرى المكان الذي تشغله اليوم بين الأمم المتحضرة؟ إن التاريخ يرينا بدقة بأن عظمتها منوطة بكثرة رجالها العظماء وقلوبها النبيلة.

التعصب والقبلية

أما أولئك الذين يرفضون رؤية الأعمال الخيرة التي تقوم بها القوات العمومية إزاء المسلمين، فلا بد أنهم لم يتساءلون من قبل: "هل ما أفعله طيب أم خبيث ؟ عادل أم لا ؟ فيه شيء من الجمال أم لا ؟

أسئلة مثل هذه التي تجرنا صوب الإنسانية الراقية، إلا أن في الإنسان ما يدفعه دائما صوب الأسفل فينسيه الحكمة. إلا أن القاعدة الإنسانية تفرض علينا أشياء مثل : إن العالم يقود الجاهل، والقوي يقود الضعيف، والغني يعين الفقير، بهذا الشكل تعلو نفوسنا ويتزايد رصيدنا من الفضائل.

إن التعصب المشين مرفوض لدى النفوس الرقيعة ممثلو لفرنسا بما لديهم من حب للخير وللحرية يرون المتعصب كشاة تهرب من قطيع الحضارة، وكعدو يريد المساس بأسوار البنيان الحضاري القوي، لأنه إذا كانت الحكومة ترضى لرعاياها الحياة، فالمتعصب لا يرتضي لهم سوى الموت.

يقول شيكسبير: "ما تريد الحصول عليه بالقوة، يمكنك تحصيله بابتسامة".

أما سليمان عليه السلام فيقول: "سعيد هو من يدرك الحكمة من الأشياء"، ثم يوظفها في حياته لتقوية ذكائه، لأن فوائدها تفوق ما يجنيه من مال بتجارته.

إن من ينتقدون أعمال السيد الحاكم العام لأجل تقوية إخواننا الجزائريين بالعلم والتكوين الذين يتمتع بهما الفرنسيون، ما عليهم سوى تأمل دروس التاريخ، ماذا تعلمنا يا سادتي؟ إن أوروبا قد بلغت أوج التقدم في قرن لويس الرابع عشر الملك الذي أجرى إصلاحات ناجعة، واستحدث جوائز للعلماء بنى مصانع كبيرة، شيد مدارس الفن ومؤسسات العلم، وبكلمة واحدة حول فرنسا إلى أكبر منارة حضارية في أوروبا.

إن هذه المعطيات التاريخية قوية الدلالة.

ولنتأمل ما كتبه أرسطو على التحفة الذهبية التي شكلها الإسكندر على شكل كرة أرضية ذات وجوه هي الشعوب والأمم على كل وجه كتبت قاعدة حكيمة، ومجملها: "العالم حديقة أسوارها الحكومة"، "الحكومة قوة يحرسها القانون"، "القانون طريق يثبتها الملك"، "الملك إمام يعينه الجيش"، "الجيش تقوية الثورة"، الثورة مصدرها الشعب"، "على الشعب أن يكون خادما للعدالة".

هل توجد قواعد خير من هذه السياسة العالم ؟ حزب الخير العلم واضح، ومنتقدوه من مجيء الشر والجهل يبنون.

الجهـل

المسلمون جهلة لا نقاش ولا إنكار، لا نستطيع مدح هذه الحال المزرية التي ستقودهم صوب الهلاك في حين هم تحت وصاية فرنسا، صاحب أوسع دائرة استعمارية في إفريقيا الحاكمة على امتداد يقول 7 ملايين كلم^2، أغلب من يأهلها من المسلمين.

المسلمـون الطيبـون والمسلمـون الخبيثـون

إن من يدفعون الشعب المسلم صوب البقاء في جهله يعدون أنفسهم مسلمين طيبين بالارتكاز على قصص خرافية وأحاديث مكذوبة ينسبونها إلى أنفسهم. إن الإسلام أقوى بكثير من هؤلاء الدجالين إلا أن هذا لم يمنع أن كثيرا من مساوئ هؤلاء قد صارت تنسب إلى الإسلام نفسه. والرسول الكريم نفسه يقول إن العلم روح الإسلام، يا إلهي ! أ نحن مجبرون على الاختناق تحت ضغط الجهل ؟

أيها المسلمون ! لا حياة بلا علم، لا علم بلا بحث لا بحث بلا رغبة قوية في التسامي وهذا الشعور لا وجود له لدى أمة لها مستواها الثقافي متدنٍ،/ لذلك فالتعليم والتنوير واجبنا جميعا، تلك هي السبيل الوحيدة للارتفاع بالمرء فوق درجة الحيوان وهي نفسها السبيل التي هجرها إخواننا.

تعاليم الرسول (ص)

الرسول يقول إن العلم كنز مفتاحه، فاسألوا إذا لأن السؤال منافع لأربعة : السائل، المسؤول، المستمع، والأقربون.

يا لها من تعاليم ! إليه يعود فضل ثقافة الجدود الزاهرة، لقد استفادوا آمنه وأفادوا الغير والتاريخ على ذلك شهيد، تعاليم الحرية، مبادئ البحث العلمي الذي يجعلنا نطلب الحق أنا وُجد، حكمة بفضلها وعن السابقون جوهر الدين المناقض تماما للتعصب.

إن التعصب الإسلامي لم يبدأ إلا منذ الحروب الصليبية، هؤلاء الذين أناطوا بالإسلام ما هو نقيضه، هم وحدهم مسؤولون عن هذا الوضع، إن حججهم البائة للشتات لا هدف لها سوى جعل الإسلام دينا متعصبا متوحشا أبا لكل جهالة أخال لكل قساوة وابنا لكل تكاسل، يخترعون خزعبلات يلبسونها لباس الدين

ويدعون بين العبد وخلاقه، لسوء الحظ أعداء الإسلام اليوم أكثر عددا من أبنائه ؛ أيها المسلمون إنني لأقولها باسم الحق والله إننا لصانعوا شقائنا !

أسباب التخلف

لقد هجرنا العلوم والفنون والتزمنا بالعزلة، إننا لا نبذل جهدا للتأسي بالأمم المجاورة في تقدمها، إن ديننا يمنعنا سابقا من قيادة العالم والمؤسف أننا نرى والأمم الأخرى تنتج ما يحثنا ديننا عليه، والأدهى والأمر أننا صرنا نكفر ونشيطن نتائج تلك الحضارة، لذلك تصيبنا صواعق سوء أفكارنا وأعمالنا.

أي عذر لنا وقد تسرب الخمول إلى عقولنا ؟ أي مبرر إزاتنا والكسل يمنعنا حتى من الاستفادة من المبتكرات العصرية ؟ أيها الإخوة هل ستختارون الجهل الذي يبعدكم عن كل شيء ؟ ماذا ستقولون دفاعا عن أنفسكم ؟ لقد خالفتم قرآنكم ورسولكم وابتعدتم عن تقاليدكم ونأيتم عن علوم زمانكم، كفوا عن هذه الخطايا، خذوا مثل جيرانكم وكفوا عن عبادة الجهلة، لقد حان الوقت للتجمع والاتحاد لأجل دفع عجلة العلم وإن التباهي بالعلم

لخير من التباهي بالنسب، إن الفخر حصان لا يركبه سوى الخسران.

صوب حضارة العمل

فلنعمل بشجاعة إذن "الذكاء يصلح الحال دون إضاعة وقت في البكاء" صدق شكسبير، فلنحارب الجهل ولنتحالف ضد الكسل والخنوع، عدونا الحقيقي.

فلنتذكر أن حكومة الجمهورية الفرنسية لو أنها أرادت بقاءكم على حالكم من تقهقر عقلي لما بنت كل هذه المدارس ولما تجشمت كل هذه المتاعب لتكوينكم،أيود قتلكم من يعطيكم أسلحة الحياة، استيقظوا وأيقظوا إخوانكم واعترفوا بالفضل.

شكرا للحكومة الفرنسية وممثليها.

شكرا لكم أيضا أيها المسلمون الذين لم يستدرجوا خارج دائرة الحق، ولنعذر الآخرين متذكرين كلمة الفيلسوف : "لا يمكنني الحكم على شعب برمّته، بل إنني لا أجرؤ حتى على اتهامه".

ثم إن المتعلم وحده حي ولا حيلة للميت ولو جيشت الجيوش من الموتى في مواجهته ! لو عاد من ماتوا منذ سنين ليروا ما صار من ودّ بين المسلمين والفرنسيين لاندهشوا وإنني لأجزم أن الأمور ستسير إلى الأفضل.

لقد ذكرت الحاكم العام مرارا ونسيت ذكر السيد المفتش العام للمدارس، كل ممثلي الحكومة وكذلك كل الموظفين والسلطات التي تشرف بحضورها هذه الاحتفالية.

يحيا العلم وأهله وليسقط الجهل وأتباعه !

حضارة الوفاق

محاضرة ألقيت بنادي صالح باي

سيداتي، سادتي،

إن اجتماعا كهذا لهو من الأهمية كل منا إنه ليدل على أن مجتمع الأهالي قد ولج مرحلة جديدة من الوفاق والسلام، إنه مؤشر على خطوة كبيرة على درب التقدم، ودليل قاطع على أن مجهودات الحكومة الحكيمة المتنورة لم تكن هباءً.

هذه المجهودات أيها المسلمون، رأيتموها يوما بعد يوم إلا أنكم ستستحسنونها أكثر في المستقبل فكونوا واثقين في المستقبل وفي هذا الرجل الذي تلقى مهمة نقل أقداركم من الظلمات إلى النور.

سادتي، يتفق جميع الحكماء على أن الإنسان المتحضر إنسان لا يستطيع العيش بمفرده لحاجته إلى المجتمع وكلمة "تمدن" الدالة على الحضارة دالة على سكنى المدينة.

الحضارة إذن هي المصطلح الذي يميز مجتمعا أشخاصه كيِّسون مؤدبون همهم العمل من أجل الصالح العام، إنها تتماشى

مع فكرة التجمع في حين أن التوحش يفترض غياب كل ما يعمل على رخاء البشرية.

إنه نقيض كل المبادئ الضرورية التي تتكئ عليها المجتمعات، إنه ترك القدر بين يدي الصدق وبكلمة إنه اللاتضامن.

لا أحد منا إذن يمكنه الاستغناء عن إخوته: العالم مفيد للجاهل والغني للفقير والسيد لخادمه والعكس صحيح والأمر نفسه في كل مجالات النشاط البشري.

أما أولئك الذين ينطرحون أمام تقلبات الصدق دون القيام بواجباتهم إزاء المجتمع والذين يتبجحون بالدين ويتظاهرون بالزهد في الحياة فهم —كما يقول بعض الحكماء شبيهون بشعر الإبط الذي لا دور له سوى تجميع الأوساخ والروائح النتنة، لذلك فعلينا هدايتهم من ضلالهم العميق.

فالشعوب سارت في طريق التقدم بالعمل وبالعمل وحده بلغوا السعادة والعمل هو المصدر الوحيد للثراء، الرسول عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام يقول : "أفضل الأعمال أدومها"، والكتاب المقدس يقول: "حركوا أيديكم وسيفتح الرب لكم أبواب الثروة"، ويقول محمد مرة أخرى : "إن الله يحب العامل ويكره العاطل"، في

حين كان يقول الخليفة عمر لصحبه: "لا يقعدن الواحد منكم قائلا: الله هو الرزاق، فأنتم تعلمون حق العلم بأن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة" وكان يضيف "يكفي أن يقال لي : هذا رجل كسول حتى أحتقره".

ترونا كم أن أسلافنا كانوا يقدرون العمل فلم ينال الكسل من أسلاف هؤلاء إلى هذا الحد.

إن الله قد خلق الإنسان إلا أن بلوغ الكمال مهمة الإنسان وحده والإنسان الذي يظل عند مستوى الحيوان ليس حيا بالمعنى الحقيقي للكلمة، ها هو ذا امرؤ القيس رغم أنه جاهلي إلا أنه يتحدث عن العمل قائلا :

ولو أن ما أسعى لأدنى معيشة　　كفاني ولم أطلب قليلا من المال

ولكنما أسعى لمجد مؤثل　　وقد يدرك المجد المؤثل أمثالـــي

ما أروع الدروس التي يقدمها أمامنا هذا الرجل الجاهلي لإفهامنا معنى الكرامة الإنسانية....

سادتي،

تعلمون أن الإنسان أشرف مخلوقات الله في هذه الأرض وأشرف ما فيه قلبه، مسكن الإيمان والعقل والحكمة، فكيف

لهذا الخلق الشريف أن يملأه الجهل والخبائث تلك أمراض القلب التي علينا محاربتها دون هوادة، تلك نجاسة لا بد من التطهر منها.

كان الرسول (ص) يقول: "ثلاثة أشياء تمس بابن آدم : كثرة الشح، العجب بالنفس ودناؤه الروح"، كم حاد أبو حامد الغزالي من هذه الأمراض، والرقي بأرواحنا والتحلي بالفضيلة.

كان الرسول (ص) يقول "طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة" وكذلك "اطلبوا العلم ولو بالصين" إن التكوين المعمق فريضة علينا جميعا إن أهملها الشعب كله تصير بالضرورة فرض عين فإذا قام بها جزء من هذا الشعب صارت فرض كفاية لذلك فالأمر بالمعروف واجب كل المسلمين وبالقياس فإذا حافظ على التعاليم جزء لا بأس به من المجتمع فإن هذا المجتمع لا يصير كافرا إذا لم يكن كل الناس مؤمنين، كذلك هي الحال بالنسبة للعلوم فعلينا التزود منها على تنوعها ما استطعنا إلى ذلك سبيلا.

إن الإسلام ليتبرأ ممن نراهم يدعون إلى مقاطعة الأدوية لعلاج الأمراض بحجة القدر، إن الإسلام يومن بأن الله هو خالق الخير والشر معا، ومن آمن بالله فليؤمن بهذه الأشياء أيضا.

سادتي،

لقد حاولت بكلمات موجزة إعطاء صورة عن حالكم وصورة عن بعض حقائق الدين الإسلامي، عقيدته، أحكامه، تعاليمه ومحرماته.

ما الخلاصة يا ترى ؟ فلنستنتج ولنقل أولا إن الأمة مثل أمتنا يجبرها تاريخها على مواجهة الحقائق !

الحق أننا جهلة ! الحق أننا كسالى ! الحق أننا في ضلال ! مصرون على الانحطاط وجاهلون لدور الإنسان على وجه الأرض، لقد أهملنا تربية أبنائنا، وتلك هي وسيلة التقدم، هذه التربية هي التي تسمو بأمة وتنحط بأخرى، والتي سمت بالأوروبيين وآلت بنا صوب الحضيض.

تبا لكم أيها المسلمون، أنتم الذين تعيشون مع الجهل في وئام، بربكم الذي تعبدون وبحق رسولكم الكريم، ألا ترون الخسر أن الذي أصاب ثرواتكم وأنفسكم معا ؟ هذه الثروات التي تراكمت على مر القرون بفضل أسلافكم وجهودهم المضنية والتي بددتموها بين عشية وضحاها.

إنكم ترون الحيف بأم العين في كل يوم، ومع ذلك فأنتم تقبلونه نسيتم دينكم ثم ازوررتم من الإصلاحات التي جاءتكم مع

المعمرين، ما هذا الكسل ؟ إلى متى هذا الخنوع ؟ لقد بلغتم حضيض الحضيض !

ماتت قلوبنا فصرنا لا نفكر في إخواننا ولا نشعر بمن يعاني من الجوع ولا نشعر تماما لأنانيتنا بأي شخص يشعر بأية خصاصة.

أسلافنا يقولون إن الساكت على الحق شيطان أخرس ألا ترون أثرياءنا مزهوين بأنفسهم يلبسون الفاخر ولا يبرحون الحفلات؟ ألوانهم زاهية أفواههم مملوءة مشيتهم خيلاء، مظهرهم كبرياء، يتكلمون بفخامة -دلالة الجهل- ... يملؤون الشوارع بتسكعهم وعطالتهم دون إلقاء أدنى نظرة على الكادحين المحيطين بهم من أبناء دينهم.

أيها المسلمون، ماذا تفعلون بهذا الدين الذي يقول أن من لا يرحم الغير ولا يرق لعذاب الغير، مهما كان اسمه، لونه ودينه ليس مؤمنا؟ دين يعلم التكافل والتعاون ويدعو إلى التراحم بل إلى رحمة الحيوان أيضا، ويمنعكم حتى من كسر حجر إن لم يكن وراء ذلك نفع ما !!!

لهذا يدعونا الإسلام ويأمرنا بالتعاون على البر والتقوى، ولكن هذا مستحيل الحدوث إذا كنا في مجتمع لا يؤمن بالعمل الجماعي للصالح العام ! علينا يا إخواني أن نرقى بأنفسنا، وأن

تترجم أعمالنا الشعور بضرورة رد المعروف الذي أسداه لنا مجتمعنا وأسدته لنا عائلاتنا.

لقد استفدنا ولا نزال نفعل من أعمال آبائنا وأسلافنا فماذا نترك لأخلافنا؟ عن من لا يعمل، هنا، بيننا، عنصر لا فائدة ترجى منه، ولا بد من اجتثاثه أن هذه حكم جميلة وعاها الإسلام ودعا إليه دائما، ومن المؤسف أننا لم نعد نعيها جيدا، وأننا تخلينا عنها بل إن منا من يقول إن العمل ليس واجبا وأن التفاوت فيه سنة إلهية، وأنهم ليسوا مجبرين على بذل مجهود بفضل مولدهم فحسب وأن الثروات تتوزع دون اعتبار للعمل والجهد، وأن العالم قارب نهايته وألا فائدة ترجى من أي شيء كان، فليعلم هؤلاء أنهم ليسوا من الدين في شيء وأنهم على خطأ كبير.

إن الله خالق الإنسان، قد وهبه كل الخيرات أظهر له بعضها وأخفى البعض الآخر بهدف دفعه إلى السعي والعمل لتحصيل العسير والوصول إلى درجة أن يسكنه الفضول الجميل –ما التزم بالحدود والضوابط- والذي يدفعه صوب هذه المخفيات، ثم وزع الله سبحانه الثروات بعد ذلك بحسب العمل، وبحسب إقبال العباد عليه.

لم نسمح أبدا بأن أسلافنا منذ الرسول (ص) حتى بغداد والبصرة وقرطبة وسمرقند قد أقلعوا عن العمل مكتفين بالإيمان بأن الله مسير أعمالهم، ومن قال بما شابه هذه الترهات فهو جاهل وإن دعي :عالما ويكفي التذكير بحديث الرسول (ص): "اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا".

إن هنالك –لسوء الحظ- من يقبل هذا التواكل وهذه الجبرية ثم ينشرها ويدعو إليها وأصدق تشبيه لهم ما أورده نبي الله عيسى عليه السلام إذ قال إنهم كتلك الصخور التي تعترض النهر فلا تفعل سوى منع التيار من التقدم.

لقد مس هؤلاء الناس الدين والمجتمع الإسلامي أي مساس إلى درجة خلق مجتمع كسول سلبي، إن تواجدهم بيننا هو الذي جلب هذه الرخاوة التي صرنا نشعر بها حولنا والتي تذهب إلى حدّ التخلي التام عن واجباتنا والنسيان الصريح لتعليم ديننا التي صرنا نقرؤها دون فهم، وذلك رغم قراءتنا مرارا للآية: " أ فلا يتدبرون القرآن"، لماذا ترى جاء هذا الكتاب ؟ ليس الهدف إحياء العلوم والدين ؟

إن من يحفظونه عن ظهر قلب كثر بلا شك، إلا أنه من المؤسف أنه لا يفهمونه، ولا يتبعون تعاليمه، ثم إذا رأوا من يدرس

الجغرافيا، أو الطب أو الطبيعيات والتاريخ والنبات والحيوانات والتشريح، وكلها علوم بالغة الأهمية بالنسبة للإنسانية، اصطنعوا عدم الاكتراث، وقالوا إن كل ذلك بلا فائدة للإنسانية قبل أن يدينوا الأمر تماما، فإن سألتهم : ماذا تفهمون من قوله تعالى : "إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون" أو قوله -جل وعلا- "وفي أنفسكم أفلا تبصرون" ؟ قالوا إنهم لا يخوضون في تأويل الآيات لعسر الأمر وتعقيده، ولخوفهم من مغبات الفهم السيئ والتأويل الذي يوقع صاحبه في الحرام : لقد أحالوا الإسلام، دين التسامح السيئ إلى ديانة جافة منغلقة ومتعصبة.

كيف تريدون، سادتي، التقدم بهذه الطريقة ؟ أنخرج يوما من حالنا التعيسة هذه بهذا الشكل من قراءة النصوص بلا فهم ؟ ولا أقول هذا لمن يسمعونني فحسب بل القول يعني الجميع.

أعلم جيدا أن حب الدين من طبائع المسلمين، ولكننا نحب الإسلام دون إدراك ما يحويه من جمال وخير وخلق، إن الحب غير كاف، لا بد من التشبع من هذا الدين والتعمق فيه.

لهذا لا يحق لنا لوم من يصفوننا بالتخلف، الحضارة، إنها الإسلام عينه، لأنه يأمرنا بمواصلة العمل، بالمحافظة على صحتنا، بالبحث العلمي، بإشاعة المعرفة حولنا والتخلص من الأحقاد، ومن

الأحكام السلبية على من يخالفنا الأمانة، الثقة، الاعتدال، الاستقامة الخير والإحسان للغير : أليست هذه هي قيم الحضارة ؟ أم أن الحضارة في أعينكم ليست رديفة إلا للزنا والخمر ؟

هل تعلمون ماذا يقول القرآن ؟ : "ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا لهم بركات من السماء والأرض" ؛ ويقول مضيفا فيما بعد : "وأن لو استقاموا على الطريقة لاستقيناهم ماء غدقا"، تأملوا الأوروبيين المحيطين بكم وتأسوا بنموذجهم لاحظوا تكوينهم ووحدتهم ثم انظروا إلى فرقتكم وجهلكم، تأملوا سعيهم صوب الكمال وتطورهم ثم انظروا صوب جهودكم أم أن عيونكم صارت لا يرى وعقولكم صارت لا تتأمل.

لقد تركتم تربية أولادكم وتركتم مصالحكم ومع ذلك تضحكون وتلهون وكان الأجدر بكم البكاء وجيوش الظلام والجهل تحيط بكم من كل جانب.

إن الحكومة الفرنسية تساندكم دائما، إلا أنها لا تستطيع العمل وحدها على تطويركم والدور دوركم كي تعينوها على هذه المهمة النبيلة، فلا تدبروا ولا تزوروا مقلبين صوب من يجرونكم وسط الباطل باسم الدين الذي يشوهونه لأي هؤلاء المدعين هم أعداءكم الحقيقيون أنتم ودينكم الإسلامي.

أرفضوا ناصحي السوء وابحثوا عن الفضيلة أنا كانت، بواسطة تكوين قوي لا بواسطة تعاليم أساسها التأويل الخاطئ والتعصب الفارغ، دعوكم من القصص التافهة للمسيح الدجال لأن ثقتكم كلها تكمن في الأرض التي تحرثون، احرثوها وازرعوا فيها الذهب ثم ضعوا ثقتكم في التكوين الذي سيقوي عقولكم ويضمن لكم مستقبلا أفضل !

لديكم قرآنكم وأحاديث رسولكم وكذلك تعاليم أسلافكم التي قادتهم صوب المجد فاتبعوها إذن والحكومة من جهة أخرى معكم قلبا وقالبا لا هم لها سوى تطويركم؛ ما مبرر الفشل إذن ؟

توحدوا أيها المسلمون وليحب بعضكم بعضا وكونوا يدا واحدة في هذه الجزائر الجميلة تحت راية السلام والوئام والعروة الوثقى "الإسلام إلى جماعة أحوج من الجماعة إلى الإسلام".

الأمانة والعرفان

خطاب شكر للسلطات الفرنسية

سيداتي، سادتي،

لكم أود التعبير عن بالغ سعادتي لهذا المحفل المعبر عن حبكم، ولكم أود وجدان الكلمات البليغة التي تؤكد للحكومة التي كم شرفتني، مدى عرفاني وإخلاصي واحترامي.

ديني لفرنسا لن يجد له هنا مترجما، إن هذا الوسام الذي تزينونني به لهو يعني الكثير من الأشياء، كما يسمح لي بسعادة أن أرى هنا حولي نخبة مدينتنا وهي تشرفني جم التشريف. إنني لأرى فيم تفعله فرنسا مع أبنائها الكرماء مع الحواريين قويي العزيمة في مجال الأخوة والإنسانية ومع كل من يعمل لاجتثاث الشقاق والشر.

إلا أن علامة ثقة مثل هذه تذكرني خاصة بواجبي، هذا الواجب أقبله برضا وشهادة ينير دربي فيه من سبقوني وسأقتفي آثارهم دون أسف ولا غضاضة.

شكرا لكم يسدى مدير المدرسة يا من عرف كيف يكسب ودنا ولكم السيد غورليو أنتم من ترأسون بسماحتكم المعهودة اللجنة الاستشارية لمذهبنا ولكن السيد الأمين العام يا من تضعون بسماحة ذكاءكم ووقتكم في خدمة تحسين أوضاعنا، ولكم أخيرا عزيزي بلعابد يا خير ظهيرا لي في معركتي ضد الجهل، شكرا على لغتكم الفصيحة التي أخشى أنه لا قلمي ولا لساني سيجدان ما يكفي من البلاغة لشكر ما صدر عنكم بالشكل الملائم.

سادتي،

قيل مرارا إن السيف والقلم رفيقان وفيان يمكنهما تحقيق كل شيء، فعلا فمن يجهل ما من شأن قلم فصيح يشعر بأن القوة تظاهره وتقف على ضفته، أن يفعل ؟

الحكيم، أقصد رجل القلب الذي لا يعرف سوى التقاليد الظاهرة للعمل والذي يعيش بسلام لا هم له سوى خير بلاده والذي لا شغل له سوى رخاء أمته.

هذا الحكيم ما الذي يمكنه أن يأمل أكثر من الحلف الفعال للقوة والفكرة : القوة التي تفرض نفسها والفكرة المقنعة، فما فائدة الثراء لبلاد أحشاؤها تتقطع وأعضاؤها في شقاق ؟ أليس

الخير كل الخير كامن في القلب، أليس الواجب هو إقناع العقل وإبهار الأرواح ؟ أليس هذا هو الفلاح الحقيقي، الفتح الشريف، الفتح الخصب ؟ هذا الفتح، بلا شك لا يمكنه أن يتحقق دون بعض العسر.

بالنسبة لي أيها السادة وأنا أعترف بذلك ممن يعلم احتقار الإنسان الذي لا يكون كلامه ترجمانا وفيا لفكره لقد كنت أعد من قبل إخواني في العقيدة مستشارا غير مأمون، ومع ذلك ورغم المرارة كنت أشعر في داخلي بقوة تفتأ تزداد فتنير طريقي وتجبرني على السخرية من كسلهم وتداعيهم وبلادتهم. كنت أستمد القوة من رغبتي في تحسين حال إخواني بتقريبهم منكم سادتي الفرنسيين، والرغبة نفسها تسكنني في إعراب عرفاني إزاء الحكومة التي تفعل الكثير الكثير لأجلنا.

لأننا اليوم هنا في حضرة قوتين أراد الله لهما الاجتماع، فإنني يتوجب علينا أن نعمل جاهدين من أجل غلبة العلم على الجهل، والحضارة على التوحش.

على امتداد مسيرتي دعوت للخير، وعرضت أفكاري بكل حرية منتقدا خصومي، هجرني الكثير وخانني البعض، إلا أنني

مؤخرا حظيت بجمهور جديد، ودخلت قلوبا لا عهد لي بها، وصار لي أتباع حتى من أولئك الذين كنت يائسا منهم.

لا أدعي لنفسي شرف إنجاز عمل هو عملكم، سادتي، أكثر مما هو ينسب إلي ما يملأ نفسي شعوران : شرف الانتماء إلى تلكم والرغبة في المواصلة، ما أفعله هو فقط الإشارة إلى بعض النجاح الذي حققناه، فأنا واثق من أنه من دواعي سرور المدرسين نجاح مهامهم التدريسية، وشيوع النور الذي يحملونه وتبدد ظلام الجهل والتعصب من سماء المجتمع الإسلامي.

افتخروا بعملكم أيها السادة المسيرة ناجحة ولولا بعض العقبات لكنا قد حولنا كل شيء عن حاله، ولكننا مسرعين في مسيرتنا على طريق العلم والحضارة فلندع جميعا بالنصر والبقاء لجمعية صالح باي.

أما أنت، سيد آريب، يا المؤسس الفعلي للجمعية الأهلية، فأنا عاجز عن تعداد مزاياك الكثيرة، وأمانتك في العمل، ونزاهة إدارتك وحزمك وكلها صفات جرّتنا جرا صوب احترامك وحبك.

لقد فتحت جمعية صالح باي مرحلة جديدة من الرخاء والسعادة، وكانت درسا واضحا لتذكير المسلمين بواقعهم

وبالحقائق المحيطة بهم ودواء فعالا لبعض الأمراض الأخلاقية التي كانت –ولا زالت ولو جزئيا- تنجز جسد الجزائر.

لهذا فإننا لا نستغرب نظرات الحقد، ومشاعر الغيرة، والأقلام التي تتفنن في إلحاق أبشع الصفات بأروع الناس وأفضلهم وأبعدهم عن المنقصة والرذيلة.. وتلك هي سيرة ضعاف النفوس ومرضى القلوب وعبيد الرذيلة والكارهين للبشر منذ بدء الخليقة.

وليعلم هؤلاء الناقمون أن حقدهم لم يفعل سوى تقوية الجمعية، وتعزيز صفها وتحسين صورتها لدى القوات العمومية، وليعلموا أن أعضاءها وكلهم أقوياء ثابتون تعززهم التشجيعات وتزيد نزاهة مسيريهم وتواضعهم وزهدهم في الأشياء عزما على المواصلة والمضي قدما صوب أهدافهم.

وستعكس مرآة المستقبل صورة نصر الجمعية النهائي، وهو نصر ستعترف به فرنسا أيضا رغم كل ما يقال في حقنا، وسنكون آنذاك إزاء مسلمين نشطين عاملين جادين مجتهدين، واعين بحقوقهم وواجباتهم، أوفياء كرماء كأسلافهم المجيدين، يفضلون الموت لأجل وطنهم المتبني على خيانته وإهانته.

هي كلمات أود تسمعها فرنسا برمتها وهي تسمعها من خلال ما تبدو عليه صورتكم أنتم أيها السيد الأمين العام، يا موضع

ثقتنا وتقديرنا، لقد شعرت وأنتم تعلقون الوسام على كتفي بأنني أقف أمام الجمهورية الفرنسية جمعاء.

ثقوا، سادتي، أن هذا الصليب جاء يتموضع قرب قلب يعشق الحق والعدالة ويأمل من أعماقه أن يرى هذين الشعبين يسيران جنبا إلى جنب تحت الراية نفسها، والشعور بالأخوة يملؤهما.

لن أغفر لنفسي إنهائي كلمتي دون توجيه كلمة شكر لشيخ بلدتنا السيد مورنيو الذي نكن له أسمى مشاعر الاحترام والامتنان.

ولينعم الله علينا بنعمة أن نرى بيننا دائما رجالا يهمهم شأننا إلى أن يدخلوا قلوبنا بلا إمكانية الخروج.

أسباب الانحطاط

تعاليم القرآن

المحاضرة الثانية الملقاة في جمعية صالح باي

سيداتي، سادتي،

لو سئلت الليلة: من أسعد الناس، لأجبت بنشوة: "أنا" وكيف لي ألا أكون كذلك، وأنا أحظى بشرف المثول أمام هذه الوجوه النيرة المتميزة بأذهانها الثاقبة، أمام أبناء العلم، أولئك الذين يضطلعون بمهمة الإيحاء لأبناء فرنسا بحبها، إن ارتجّ علي فاعذروا ضعفي واقرؤوا في ذلك عمق احترامي لكم وعظمة صورتكم في نفسي تفضلوا سادتي علي بالاستماع وامنحني أذهانكم وقلوبكم لكي تملأوا فراغات قد أخلفها لما في من نقص ووهن.

تعلمون جيدا كم أن التعاون حمال للخير وكم أب الاتحاد بين رجال الحكومة والمدرسين والشباب جلابة كلها للرخاء المادي والمعنوي للإنسانية على اختلاف المهام المنوطة بكل زمرة من هؤلاء. فإذا كان حب التكافل والخير العام جُبلة جبل عليها الناس

أجمعون فإنه عند المسلمين من علامات صحة الدين، بل إن علي بن أبي طالب كان يقول إنه لا سعادة للناس إلا بمقدار ما أودعوه من ثرواتهم في حق طلب الخير للأرض التي يسكنونها.

وقد جاء عن الأصمعي أنه نزل على أعرابي ذات يوم فطلب منه شيئا من الحكمة فأجاب إن أردت معرفة عقيدة الرجل فانظر على رأفته بإخوانه وحبه لبلاده، ونقرأ في القرآن "تعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان".

فمثلا نقرأ "لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون"، هذا الرخاء لا يجلبه شخص واحد، وقد صدق من قال : ماذا بإمكان الإنسان وحده أن يفعل حتى في قلب الجنة ؟ ماذا يستطيع العاقل وسط الجهلة ؟ قد نكون، إخواني آتين من عقيدتين مختلفتين إلا أن تواجدنا على الأرض نفسها يجبرنا على أن نكون متعاونين لأننا نحب هذه الأرض بقلب واحد، ونفعل خيرا يجلب علينا خيرات تشملنا معا.

إذا كان الله قد وزع الأرزاق في الأرض، ودفن بعضها بعيدا عنا، فإن له سبحانه حكمة من ذلك،هي أن يدفعنا للسعي لأجل تحصيلها في الأرض وفي البحر، ثم لطلب ما ينقصنا عند الغير في حين يطلب الغير عندنا ما لا يملكونه بهذا الشكل يحصل

التعارف، إضافة إلى ما في السفر والترحال من تطوير للمعارف وتقوية للتجارب لأجل هذا لا بد على بعض العسر أن يختفي من طريق التقدم وهذا ما كان نابليون يشير إليه حينما قال : "إن فرنسا تعمل جاهدة لتطوير وتحضير الأمم والبلدان، إلا أن كثيرا من هؤلاء لا هم له سوى ردع عملها وكسر بنيانها، ولولا ذلك لكنا بلغنا أعلى القمم وأبعد النقاط الممكنة".

يحيرني كثيرا أن أرى أناسا يمنعهم عماهم من رؤية الصالح العام، بل إنه ليبدو أحيانا وكأنهم يلومون الله -عز وجل- على أنه خلق العالم بهذا الشكل وليس بشكل آخر، أو ينتقدون تعدد الأجناس والألوان والأصول والألسن وكأنهم يجعلونه -سبحانه- مسؤولا عما بين هؤلاء من فرقة وشقاق وتناحر وحروب "ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة"، ليس هذا الخلق عبثا، فدعوا نواميس تمضي لحكمة يعلمها.

يقول علي -كرم الله وجهه- : "الإسلام دين عظيم جميل، ولكم أن تؤمنوا بما تشاؤون"، إن احترام كل العقائد وكل الأفكار لهم علامة من علامات التحضر.

صدق الشاعر القائل :

يقولون أم خالد كافرة   فقلت ذروها كل نفس لدينها

ذلك هو واجبنا، أيها الإخوة، على اختلاف ديننا وأمتنا، لأننا بنو وطن واحد ومهمتنا الحضارية مشتركة، والمبدأ التكافل الاجتماعي واحد بيننا.

الجهل والتعصب وحدهما جعلا الإنسان عدوا لأخيه الإنسان أكاد أتمثلنا كذلك الذي رأى هنالك على الأكمة شكلا غريبا أخافه، فلما اقترب اتضح أنه إنسان، ولما اقترب أكثر وجده شقيقه ابن أمه وأبيه ! أليسا شكسبير صادقا وهو يقول : "إنها الأنوار الضئيلة المحيطة بنا التي تجعلنا لا نرى الخير المحيط، وتحجبه عنا، ونخشى السعادة حتى نظن أنها لا وجود لها".

أ نحن في حاجة إلى التوسع في موضوع تخلف الأهالي، لا أبدا، إن الأمر لواضح بيّن لا يحتاج إلى بيان.

من منكم يا ترى لم يعاني انحطاط المسلمين الجزائريين ماديا ومعنويا ؟ إن قراءة بسيطة في تعاليم القرآن ومعانيه فيما يأمر به وما ينهي عنه، ثم نظرة سطحية صوب الحال المزرية للجزائريين، تعصبهم، كسلهم، تراخيهم، وتواكلهم، يجعلنا نقسم بأنهم المسؤولون عما لحق بهم، بل إنهم مصدر كل شر من الشرور التي يشتكون منها ؛ الأنانية، الجهل الكبير والتضحية بالصالح العام

لأجل الصالح الخاص. تلك، سادتي، هي الأسباب الكبرى لانحطاط المسلمين!

تأملوا، سادتي، معي القرآن ولننظر معا إن كان لديانة تعادي الحضارة المعاصرة والتقدم، وهل هو كتاب يدعو الجبرية والتواكل واضطهاد المسيحيين مثلما يدعي البعض ! العكس هو الحقيقة. إنه يدعو إلى الدراسة ومحبتها، بفرعيها: العلوم الشرعية وعلوم الدنيا عموما، إنه الكتاب الأول الذي أصر على التعاون والتآزر والتضامن.

لا، سبب انحطاط الأهالي ليس قرآنهم، لأنه لو كان سببا للانحطاط لما سمح لأوائل المسلمين ببناء الحضارة الزاهرة التي نعرفها. الفرق كل الفرق هو أن أولئك تجشموا عناء الفهم الصحيح الذي لا بد منه وإلا فلا معنى للكتاب برمته.

لقد وضعوا اليد على ستة أجزاء لكل منها تعاليم جميلة مفيدة.

الجزء الأول يحث العمل، وهو يحوي ما ينيف على 700 آية.

الجزء الثاني يدعو إلى محاربة المحرفين والجهلة ودعاة الباطل الذين هدفهم خداع العقل من خلال زرع بذور الأكاذيب. أكثر من 1000 آية.

الجزء الثالث يتناول عمران الأرض وبناء الممالك، وأسباب الانحطاط، أو أسباب اندثار أمم وازدهار أخرى، ويضرب هذا الجزء المثل للأجيال المقبلة.

الجزء الرابع يتناول الممارسات اليومية والسلوك الاجتماعي، اللباقة، طاعة الوالدين، والاعتبارات الواجب التسلح بها إزاء الأصدقاء والجيران ...الخ. أكثر من 700 آية.

الجزء الخامس موضوعه الإسلام عموما، والقواعد الخمس التي هي قواعد سلوكية وعقيدية مبنية على دروس في النظافة والاستقامة والتكافل الإنساني، فالصلاة تتطلب النظافة التامة، والصوم طهارة للبدن، والزكاة إعانة من جيب الغني في جيب الفقير، وقد مدح الرسول [ص] مزاياها دون كلل. وما الهدف من هذه التعاليم، سادتي؟ الهدف الرئيسي فلسفي، إنه جعل الأقوياء يرأفون بالبسطاء والضعفاء، والمؤاخاة بين محظي القدر ومن هم أقل حظوة، والهدف الآخر مادي، إنه تحسين وضع البشر.

للحج فوائد كثيرة، على رأسها حب السفر، وتطوير العلاقات الدولية (والتجارة أساسا) الكل سيستفيد من فترة الحج إلى درجة أن هنالك من بدو شبه الجزيرة من يربط كل الآمال على أيام الحج.

الجزء السادس خاص بالعذاب الذي ينتظر المخطئين، إنه قانون مدني وقانون عقوبات فيه كل الضوابط.

ماذا ينقص القرآن إذن ؟

تاريخ، أدب، علوم، حقوق، كل شيء يجد له في القرآن شرحا بليغا دقيقا بأسلوب أنيق جدا، أليس هذا العصر أكثر دلالة على الحاجة لهذه القيم من كل عصر مضى؟

لقد أضاع المسلمون مذاق الآداب والفنون والعلوم، وتركوا اللياقة واللباقة وانغمسوا في أعمال يتفق العلماء والحكماء في كل زمان ومكان، ويتفق خاصة رسول الإسلام على وصفها بسبب الانحطاط، هذه الأعمال سبعة، ولكل منها أضرار متزايدة الخطر.

أولها غياب تلك الحكمة وتلك القدرة على التمييز، إذ يصير المرء يربط كل ما يحدث بالعين والحظ السيئ، ويعجز عن معالجة أشيائه، وتمهيد مستقبله انطلاقا من حاضره ثم يضطر إلى الانحطاط والرذيلة لعلاج تقلبات الدهر.

الثانية هي تلك الزيجات الحقيرة المتخلفة القهرية تبقى إحدى أدهى مشاكل مجتمعنا.

ثالث السبعة هي ممارسة الزنا والانحرافات الجنسية المتنوعة، والسبب في ذلك تأخر سن الزواج، وينجر عن ذلك تضييع المال والصحة. أما النتيجة على المستوى الاجتماعي فهي تدهور النمو الديمغرافي وانحطاط العائلات الشريفة.

في الدرجة الرابعة يندرج الكسل والخمول والسلبية وحب السلبية والنوم والأخطر في الأمر هو ما ينتج من تدهور قيمة العمل الاجتماعي، وكلنا نعلم قسوة العدد.

يلي ذلك خطر الكحول والإدمان عليه، وتناول مختلف أصناف السموم البطيئة. شكسبير يشبّه المخمور بالحيوان المتوحش، وأنا أتحرج من المساس بالحيوان بتشبيهه بهذا الإنسان المنحط.

المثل الإسرائيلي القديم يقول محقا: "حينما يعجز الشيطان عن دخول بيت ما يرسل المشروبات الكحولية لتمهيد الطريق".

قد ندرج بيسر ضمن هذه المساوئ تعداد الزوجات، وكلنا نعاين يوميا شرور الغيرة بين الزوجات، ونرى ما ينجر من فقر وبؤس، ثم أضيفوا إلى هذه التشكيلة جهل الزوج غير المتعلم وابتعاده عن روح العدالة والمساواة، والشر كامل!.

سابع السبعة هو ظاهرة وصول الجهلة الأميين إلى مناصب مرموقة في الدولة، كان الأفضل يأيها السادة أن يظل هؤلاء عند الحالة الحيوانية التي يصفها دارون في كتابه الشهير، إذن لكانوا أقل شرا !! ثم إنه لا من اختيار أقلهما إن خيرنا بين شرّين !

سادتي،

آفتنا الجهل والفقر، وتلك هي حال الأمم كلها، بعد التقدم، التخلف والتقهقر، إلا أنه واجب علينا التذكير بمجهودات الإدارة الفرنسية لعلاج بعض الأمراض، فالجزائر اليوم تسير، تحت الوصاية الحكمية الكريمة، على الدرب المستقيم، من كان ليأخذ بأيدينا لو لم تفعل فرنسا؟

لا بد من توحيد الجهود، ووضع الأيادي بعضها في بعض للمضي قدما. أما أنا فواثق تمام الثقة من حسن نوايا الفرنسيين إزاءنا، والأدلة التي تفضح ذلك تفتأ تزداد وتتكاثر، لا ينكرها إلا جاحد، وخاصة منذ مجيء شخص بعينه إلى الجزائر، أقصد السيد جونار، الحاكم العام.

إن فرنسا، الأمة المستعمرة القوية، مثل الصياد الذي لا هم له سوى توجيه الطريدة صوب مكان الطعم، أو مثل ذلك الأب الذي يتبنى ابنا فيهبه تربية وحنانا يناظران ما يهبه لابنه من صلبه. وإنني

لأقول هذا الكلام دون مهابة ولا وجل، وذلك لعلمي أن الحقيقة التي أنطق بها هي حقيقة تدركها وتستوعبها عقول منصفة ثاقبة كالتي تشرفني في هذا المجلس بحضورها.

أسائلكم بربكم، هل كنتم فيما مضى مثلما أنتم اليوم ؟ أكان يمكننا الاجتماع لمناقشة أمور دنيانا كما نفعل الليلة؟ أكان للرئيس صوت أمام المرؤوس أو للعالم أمام الجاهل ؟

لا وألف لا، لم يكن لأي شيء من هذا وجود ! إذا كان صحيحا أن الحكومة روح الشعب جسمها فإن الشعب الجزائري عضو لا شك فيه من الجسد الفرنسي الكبير. فعلا، ألسننا رعايا فرنسا ؟ إن كلمة "رعايا" هذه تثير بعض ردود الفعل، ولكنها ستتطور مع الزمن بلا شك، والعضو، سادتي، مريض، لذا فعلى جميع الجسم التحرك.

قد يقول قائل إن من الأمراض ما سيتأهل البتر، ولكننا نسمح لأنفسنا فنتأمل في إمكانية إنقاذ الأهالي مما هم فيه من ظلامية، وأملنا يرتكز على ما نتحسسه من الرغبة في التغيير ومن التغيرات البطيئة ولكن الفعلية التي هي بصدد التمظهر في مجتمع الأهالي، لذا فأنا أرجو، باسمي وباسم جميع أهالي الجزائر، من السيد الحاكم العام وكل السلطات الفرنسية أن يواصلوا المهمة

التي باشروها، وأخص بالذكر جانب المهمة المتمثل في التعليم المزاوج بين اللغتين : العربية والفرنسية، فالفوائد التي جناها متعلمو اللغة الرسمية لا تعد ولا تحصى.

إنه من الضرورة بإمكان أن يتعلم الأهالي نفس التعليم الذي يتلقاه الفرنسيون.

أيها المسلمون، ألا تذكرون محبة أسلافكم للزراعة ؟ خلفائكم فضلوها، وأثرياؤكم مارسوها وشعراؤكم تغنوا بها، والله حبانا بعقول لا تقل عن عقول الآخرين، وأنعم علينا بذوق من النعم، فلم يبق لنا سوى مباشرة العمل وترك الخمول.

بالعمل وحده نضمن كرامتنا، العمل يغير كل شيء، والتراب لا قيمة له إلا متى عملنا عليه، وبهذا الشكل فقط نبلغ مالم نكن لنبلغه أبدا.

بلا عمل ولا صبر، أن يمكن للإنسان ترويض الحيوانات ؟ بل وحتى الحشرات، كالنحلة ودود القزّ بلا عمل أكان يمكننا أن نحلم بالسيطرة على الجماد وتحريكه ؟ ها نحن أمام السيارة والمنطاد... كل ذلك نتائج الفكر البشري، والذكاء، تلك الذخيرة التي لا بد من المحافظة عليها وحفرها إلى أبعد الحدود، كما كان يطلب منا رسول الإسلام (ص) فاتحا الباب بقوله : "أنتم أدرى

"بشؤون دنياكم" إن ما يقصده، وأنا أتكلم على أساس كوني مفتيكم، هو أن كل جيل يعي تحدياته الخاصة.

لم تحرث الأرض بالمحاريث الخشبية والحيوانات في حين توجد الجرارات؟ إن الإسلام يختار دائما أيسر الطرق وأنفعها متى تم تخييره، فدوره الانتصار للعقيدة الصحيحة لا بالفكر والاعتقاد فحسب، بل بالأعمال أساسا، وكل ذلك يدخل في ما يصفه الله بإخراج الناس من الظلمات إلى النور. أما أولئك الذين يريدون أن يقرؤوا في القرآن كل شاردة وكل واردة، فهم لا يعون التطور، ثم يأتون فيقولون: "أن الأمر الفلاني لم يفعله الرسول(ص) والأمر الآخر لم يكن موجودا أيام الخلفاء، والشريعة الإسلامية لم تتطرق للقضية الفلانية، إذن فهذه الأشياء ليست من الدين!".

إن هذا التدين الساذج يفسد ما يأتي لإصلاحه: فالمطلوب هو أن أحد المذاهب لا بد أن يتطرق منذ عشر قرون بكل التفاصيل الممكنة لأمر حديث لم يطرأ إلا منذ سنوات، فنعرف حكم الإسلام في الكهرباء والإنارة والمغناطيس!! إنه لأمر تعيس ومضحك أيها السادة.

أصرّ مع ذلك على أنه لا يحق لنا ونحن نذكر هذه النقائص أن نقنط من حال الأهالي، فالسلم عموما، وأهالي الجزائر تحديدا

يقظون جدا، علينا فقط أن نعرف من أين نأتيهم: الفكرة القوية والكلمة الطيبة والإصرار على التعليم والتكوين.

إن المدارس قد بدأت تأتي أكلها، والأهالي الذين بدأوا يتخرجوا من المدارس الفرنسية هم خير برهان على ما نذهب إليه، والفضل كل الفضل يعود إلى الحكومة الفرنسية التي نشد على يدها ونناشدها المواصلة والإصرار في هذه المهمة النبيلة.

أيها المسلمون، ألا زلتم في ريب من النوايا الفرنسيين؟ ألا تكفيكم كل هذه المدارس والطرقات والجسور، والأمن الذي صرنا نعيش فيه، أليست كافية كلها لإقناعكم بالخير الذي جلبته فرنسا معها؟ وأنا أعطيكم موعدا بعد سنوات حينما تنتشر الآلات الزراعية فيعم الرخاء الذي لم نشهده من قبل

انهضوا أيها المسلمون، هل خروجكم من نومكم الذي طال قرونا صعب إلى هذا الحد؟ أتمثل الحكومة التي حكمتنا، وأتمنى لكم أن تفعلوا مثلي، كذلك الملك الذي اجتمعت حاشيته تسائله عن فضله ونبل أصوله، وجمعهم في اليوم الموالي وأخرج سيفه قائلا: "هذا هو نبل أصولي" ثم رماهم بالذهب وأعطاهم أفخر اللباس وقال: "هذا هو فضلي، والفضل في فضلي آت من قوتي".

❖ أنشودة ❖

ترنم بها تلامذة نادي صالح باي بمناسبة توزيع الجوائز وهي من إنشاء السيد ابن الموهوب وعرف بها جوق موسيقى السيدين محمد ابن كرات وبسطا نجي

العلم يحيى بالعمل … وقاتل المرئ الكسل
فسافروا نحو الأمل … وحاربوا كل بليد
يا أيها الابنا الصغار … انتم لنا نعم الثمار
جدوا لتدركوا الفخار … فعاشق العلم سعيد
فعمروا المدارسا … وجانبوا الابالسا
وزينوا المجالسا … بالعلم واطلبوا المزيد
سيروا كغيركم إلى … نيل مناصب العلا
لا تقنطوا فالله لا … يرد من خيرا يريد
الستمو فرع الكمال … الستموا بنا رجال
بالمال تهدم الجبال … كذلك الجهل يبيد
شجاعة شجاعة … عند الهجوم جملة
فان فيكم دولة … لرفع قدركم تريد
يكفيكم منها العمل … والمال في كل محل
لحرب جهل فداحل … فولوا لها هل مزيد

الفهرس

الجزء الثاني: الحرب ضد الجهل

(خطب ومحاضرات ألقاها نادي صالح باي الأستاذ محمد المولود بن موهوب)